جراند متروبوليس

الكتاب: جراند متروبوليس
المؤلف: أسامة عاطف
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
تدقيق لغوي: عاشور عطا
رقم الإيداع: 2019/26832
الترقيم الدولي: 978-977-778-189-3

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

أسامة عاطف

جراند متروبوليس

رواية

للنشر
والتوزيع

إهداء

إلى كل الأرواح التي اقتحمت حياتي ثم أماتت أجزاءً تلو أجزاء بداخلي . . لم يعُد بداخلي شئ من المُمكن أن يموت في المرة القادمة لاقتحامكم لها، فـ أنا ميت.

الانتحار هو أسهل وسيلة توصّل لها الإنسان حتّى يتخلّص من حياتِه، أمّا الوسيلة الأصعب فهي التظاهُر بالحياة ..

الزنزانة

6:50 صباحاً

الخدر يسري في جسدي ..

مُلقىً على الأرض وسط الأسماء التي نقشتُها على جُدران بيتي الجديد، ظهري كمن دهسهُ القِطار ذهاباً وإياباً دون رحمة

تعتليني الدهشة

تُضاجعني ..

لتُنجب الأفكار التي تملأُ حلقي ... محجريَّ يدوران كبندول الساعة في سُرعة لم أعهدها من قبل، أنظُر بهما على كُل ما فعلت ونقشت على الجدران.

راضخ للمصير كرضوخ الملائكة للإله عندما أمَرهُم بالسجود لآدم، رافض للذكرى كشيطان أشِر أبى الخضوع والتذلُّل في يومٍ ما.

عقلي مضطرب، قلبي يخفق ويهتز،

الجدار يقترب منّي ليسحق عظامي

فأرى بهِ جُملة:

"عليك التذكُّر يا صاحب الاثم" ...

“1”

القاهرة
جراند متروبوليس
الثاني عشر من ديسمبر
الساعة السابعة مساءً

البناية مكوّنة من ثلاثة طوابق

الطابق الأول:- "صالة الإدارة والمُحاسبة" كما أُسمّيها ومكان جلوس رجال الأعمال أيضاً.

الجدران ذهبيّة مائلة للصفاء المُحبب إلى الأعيُن، يتوسّط الساحة تمثال "أثينا" ابنة "زيوس" و"ميتس"،

إلهة الحكمة والقوّة والحرب عند الإغريق وهي تعتمر خوزتها ما بين القرن الأول والثاني للميلاد.

موضوعة في نافورة ذهبيّة ساحرة يندفع منها الماء بشكل دائري فيُعطي الإلهة منظر مثير كمن تستحم عارية وسط الجموع.

يتوسّط الحائط الأيسر فوق المسقى لوحة تعود لسنة ١٨٨٠ وهي "زهور الخشاش" لفينسنت فان غوخ ، يُعطي اللون الأصفر للزهرة منظرا مهيبا بجوار اللون الذهبي وكأنها كمن نبتتْ من الحائط للتوّ.

المرقص بجوار الحائط الأيمن تتخلّلهُ فرقة تعزف مقطوعة لـ "gheorghe zamfir".

يقود الفرقة "طارق" شاب أسمر اللون في أواخر العقد الثاني ذو شعر طويل وشارب مُنمّق.

يعزف على آلة "بان فلوت" بحِرفية لم يعهدها زامفير نفسُه.

رفعتُ يدي في تحيّة لهُ ثُم صعدتُ السلالم إلى الطابق الثاني:- "دور الحبّيبة" أو الـ underage من وجهة نظري.

الجدران ألوانها كثيرة ومُتداخلة تنُم عن عدم الاهتمام بهذا الطابق.

لا يوجد مسقى ولكن يوجد مرقص يتوسّطُه شاب وسيم في العشرينات لهُ لحية خفيفة كمن هرب من "ثانويّة عامة" للتوّ، يعزف ويُغنّي أُغنيّة "الليل" لفريق مسار إجباري، لكم من الوقت عشقتُ هذه الأُغنيّة يوماً؟

الحائط يُزيَّن فقط بلوحات لفرق الـ underground فمن ظنّي أن معظم اهتمامات الصغار تتمثل في الـ under كذلك الشاب النحيل الجالس هُناك يُراقب مؤخرة زميلتُه المُتجهة إلى دورة المياه فتابعتُ المؤخرة وانحنائاتِها معهُ حتى تلاشت.

ثم صعدتُ السلالم الدائريّة إلى

الطابق الثالث: الجو هادئ مُقارنةً بمكان يجمع الشباب المُتحرر وأصحاب الفكر والُملحدين وكل الطوائف التي يُحصيها العقل ، المرقص خالي من الفرق اليوم

يتخلل الهدوء أُغنيّة "أنا هويت" لسيّد درويش ، فيصدح قائلاً:- مادُمت أنا بهجرهُ ارتضيت ، خلّي بقى اللي يقول يقول.

النقوش تجتاح الجدران كاجتياح التتار لمصر ، تُزيَّن بعض النقوش بصور فرعونيّة للإله "حورس".

و نقش للأهرامات مرفوع فوقها حربة "أوزوريس" و نقوش أُخرى مُبهمة بجوار صورة في الرُكن الأيسر للمناضل الأرجنتيني المُلحد "تشي جيفارا" مكتوب أسفلها بلون الدم "غيريليرو هيروويكو"، وتعني بطل حرب العصابات ، بالإضافة إلى صور مُتتابعة في الوسط صانعة جناحاً ملائكيّا أو شيطانيًا إن كانت أجنحتهُم خالية من الشعر!

الصور لنجيب محفوظ فاغراً فاه عن ضحكة وأم كلثوم وسيّد درويش وشوبان وصورة فريق الجاز "kaleo".

وصورة كبيرة فوق ساقِ المسقى لفيروز تظهر فيها كرئيسة جمهورية المكان ، الإضاءة حمراء تميل للزُرقة ، الجُدران قانيّة اللون ، الكراسي والوسائد بُنيّة اللون.

نادلة شقراء ذات شعر أصفر وعيون خضراء " السُلالة الأشد طلباً لنداء التزاوج ، أو الجنس أحياناً " تضع لي القهوة التي طلبتُها أثناء دخولي فأخلع عنّي رداء التحديق حتى أشكُرها بفن مدروس مُسبّقاً إذا أردتُ أن أُقبّلها في المِصعد عندما تُنهي عملها فأكتُب لها على ورقة " شكراً .. على فكرا ضحكتك اجمل انهاردا".

فترُد بابتسامة يملؤها الغنج فمن تقدِر على مقاومة شاب أعزب في العقد الثالث ورِث الوسامة بالفِطرة.

تابعتُ بعيني سريان النيل من خلف الزجاج فكم أعشق تلك المياه عندما تتحرك بسلاسة حيّة.

- بتحب النيل؟

قاطعني صوتٌ إذا سمعهُ بيتهوفن لقرر أن يترُك العزف على البيانو ويعزف على فم صاحبة الصوت ، ألتفتُ لأتبيّنها ، خمريّة في منتصف العقد الثاني ذات أنف حاد يكاد يخترق سقف المكان من الثقة أو الغرور، عينان زرقاوان، ووجه مُزيّن بشفتين مُكتنزتين، قوام ممشوق ينُم عن عود فرنسي أصيل يرجع الفضل فيه إلى جيوش الحملة الفرنسيّة بالإضافة إلى أسنان من اللؤلؤ والعقيق الأبيض المُتراص بدقة إله مُحترف، شعر بُنّي كشعر المُهرة.

أمَا الرموش فهي سطور من فصوص الذهب والألماس ، الأسود لو كان يليق بأحد فسوف يليق بمن في مثل هيئتها وضعتُ يدي في جيبي أتحسس القلم الذي كتبتُ به غزلي للنادلة مُنذ دقائق ثم أخرجت دفتر مُلاحظاتي فاستوقفتني:-

"-ليه الدفتر !"

لم أُعرها انتباهاً يُذكر واستكملتُ فتح الدفتر وكتبتُ:-

- بحب شكل المايّه.

ابتسمت ثم أردفت.

- انت غريب! كان ممكن تقولّي من غير دا كله.

- أنا أخرس.

وقعت المفاجأة عليها كالصاعقة وبهتت ملامحها فجأةً.

فأستدركتُها كاتباً.

- بس مش اطرش، جواكي كلام قوليه وهسمعك.

جلستْ على يساري ثم اقتربتْ بكُرسيها منّي.

- بشوفك هنا بقالي أسبوع كل يوم، مبتفوّتش يوم، لسا راجعة مصر وتقدر تقول عاوزة اعمل صداقات، سألت عليك " تامر " الجرسون الرفيع اللي هناك دا بس ميعرفش عنك حاجة قولت آجي اكلمك انا.

كتبتُ.

- آدم

- بس مظنش آدم كان أخرس.

إنها تُحاول اجتياح جدران قلعتي الآن ولكن على من، فأنا هتلر إذا كانت هي هولاكو.

أخذتُ القلم وكأنهُ المسدّس وضعتُ الرصاصة به ووجّهتُه كاتباً

- ومظنش انك حوّا عشان تعرفي.

حينها لمستُ الإحراج في ملامحها.

- بتعجبني المُغامرة ملامحك عَنيدة.

- هتتعبي معايا.

مدتْ يدها لمُلامسة يدي.

- حياة.

قالتها كمن تُلقي تعويذة الحب في القلوب فكتبتُ وأنا أنظُر إليها:-

- اسمكِ حلو بس شكلكِ أحلى.

أصابعها تزحف لتخترق المسافات بين أصابعي.

- انتي من مواليد شهر أكتوبر.

كتبتُها وأعلم أنّي أُفجّر قُنبلة.

- صح بس انت عرفت منين؟

- مبيعرفوش يتكلّموا، بيميلوا للفعل ودا واضح من مسكتك لإيدي لما قولتلك انك حلوة.

ابتسمتْ راضخة للهزيمة ثم قالت:

- امبارح كانت عنيك متعلّقة مع صورة الفريق الل هناك دا.

وأشارتْ بسبابتها اليُسرى على صورة فريق " kaleo".

- دا فريق جاز اسمه kaleo.

- شكلك بتحب الجاز.

- من أول لويس أرمسترونج وفرانك سيناترا لحد ما توصلي لـ fink وkaleo.

- تعرف ان فيه مُتعة وانا شيفاك بتكتب كدا ، الكلام لما بيتقال بيتفقد طعمُه ، ما الكلام زي الأكل كدا الصمت فيه احسن.

- صمتي مكنش بإيدي.

- احكيلي.

تهدّج صَدري عند تذكُري.

- حادثة.

ملامح وجهها تبعثرت كمن رأت الشيطان حق الرؤية.

- هشوفَك تاني؟

تأملتُها بنظرة لا تخلُ من إعجاب بتلك الحوريّة سليلة الجذع الفرنسي.

ثم كتبتُ.

- يمكن.

استعدت لتقوم فعاجلتُها لأسحب كُرسيها للوراء فشكرتني ثم رحلت مُسرعة.

لا أعلم ماذا حدث عندما دوّنت كلمة حادثة في دفتري، أنظُر إلى الورق وعلامة استفهام كبيرة تدور في خُلدي أكاد أُميّز من الظلال على الدفتر أن أُذُنيّ أصبحتا بحجم أُذُني حمار...

حين أفقتُ وجدتُ نفسي هائماً في الشارع، بالكاد تذكّرتُ النادلة والبقشيش الذي وضعتُه مع حساب القهوة، فأنا لا أُميّز من الوجوه سوي "حياة" أرى وجهها يتخلل ثنايا الهواء والسحاب والسماوات السبع ،

أراها في كل خطوة وكل غمضة عين ، تضرب فصيّ مُخّي فتقسّمهُما إلى نصفين ؛ تكتبْ على الأول " حيّ" وأكتُب على الثاني "اة".

وكأنُّها تسأل وأُجاوب ببراعة تلميذ مُجتهد ، أنا أتذكّر جيداً أنّي وحيد مُنذ مُدة برغم أطنان الوجوة حولي ، وأداً لعدم الاصطدام ببوابة حديديّة أو الوقوع أسيرا في حُفرة من الشرود استوقفتُ عربة أُجره لتقلّني إلى المنزل.

كتبتُ العنوان ثم أعطيتُه للسائق مُشيراً أن اذهب إلى ذلك العنوان.

" ١٥ شارع مجمّع التحرير".

أو اذهب إلى الجحيم إذا أردت ولكن أرجوك لا تتحدّث فبخُلدي ما يكفيني ويكفيه؛ ولا ترمُقني بنظرة الشفقة تلك أيُها العاهر ، دقائق ثقيلة مرّت وكأنها دجاجة تعبُر من ثقب في الحائط ، وقفتُ أمام البناء العتيق وبعد قليل دلفتُ من الباب الحديدي أخضر اللون ، ثم من المِصعد إلى باب شقّتي في الدور الرابع، وضعتُ المِفتاح وأدرتُه فانفتح الباب ، عبرتُ من الممر أتحسس بعيني الشقة كمن يرى للمرّة الأولى، على يساري يقبع الحمام ثم المطبخ.

وعلى يميني يتوسّط الجرامافون كومود بُنّي أدرجتُ به كما من أقراص الفونوغراف[1]

سحبتُ قُرصا يليق بحالتي من التيه، وكان القُرص لأُغنيّة " Cheek to Cheek " للويس آرمسترونج والمُطربة إيلي.

وضعتُه بالجرامافون ثم أدرتُ عصاه ووضعتُها على القُرص فأتي الصوت رزيناً.

" haven .. I'am in haven .. and my heart beats .. so that i can hardly speak".

و لكن يا لويس يا صديقي ألا تعلم أنّي لا أتحدّث من الأساس!

نظرتُ أمامي لحجرتين مُناسبتين بالنسبة لعاذب في مثل سنّي وحالتي.

دلفتُ إلى الحُجرة الأولى ولويس يصدح من ورائي.

" when we are out together dancing cheek to cheek".

الحجرة خالية من الأثاث، فقط مكتب يتوسّط الحجرة و بجواره على اليمين واليسار سرمديّة لا تنتهي من الكُتب تُعيق من يُحاول الجلوس على المكتب،

فلقد هجرتُ القراءة منذُ مُدّة ...

كما يوجد صندوق زُجاجي شفّاف يحمِل بداخلُه آلة كمان، يعود عُمرها إلى عشرة سنوات فأحياناً أبعث شياطيني في تلك الآلة فتتحدّث بالنيابة عنّي ، كتبتُ مُسبّقاً على الزجاج الأمامي لهُ حكمة يابانيّة تقول " لن تعرف أبداً إذا لم تُجرّب".

فإذا لم تسقُط التُفاحة لن تُعرف الجاذبيّة!، أطفأتُ نور الغرفة هارباً إلى الأُخرى.

الإضاءة خافتة تأتي من لمبة حائط صغيرة دائريّة تتدلّى من مُنتصف الغُرفة تجعل اللون الأصفر الباهت يكسو الجُدران البيضاء ، فتحتُ الثلاجة على يميني

---

1) معناها الكاتب الصوتي مُشتقّة من اليونانية حيثُ تشتق من كلمتي (فونو - φωνή - phono) وتعني الصوت و(غراف - γραφή - graph) وتعني الكتابة.

أتحسس بقايا أكل كلاب إن جاز التعبير ولم أجد سوى زُجاجة ويسكي بُنيّة اللون مُنتفخة الآخر تعلو بفوّهة رفيعة كرقبة زرافة مع غطاء تاجي الشكل ذهبي اللون من نوع " تشيفاز ريغال".

تجرعتُ منها رامقاً باقي الغُرفة الخالية إلّا من سرير ودولاب ومرآة ،

أشلعتُ سيجارة وسكبتُ بعضاً من الزُجاجة في كوب وضعتُ به ثلجًا من المطبخ.

حكمة ١:- "لا تُشعل السجائر رخيصة الثمن مع الويسكي لكي لا تُصاب بجلطة في عقلك من اختلاط الويسكي بالتبغ المضروب".

عُدت إلى الغرفة ثم جلستُ على كرسي أمام المرآة أتحسس ملامحي التي تذبُل كل يوم كوردة لم تُسق مُنذ عقد من الزمن ، كنتُ أظن أنّي سأتذكّر "حياة" ولكن عندما نظرتُ إلى دُخان سيجارتي المُرتفع للسقف حدث ما هو مُنافٍ لذلك ، انقطع صوت لويس فجأة.

ورأيتُ الدم يخرُج من أنفي ثم عيني ثم مسام جسدي كُلّها ، أكاد أجذم أني رأيتني أموت، روحي تحوم في المكان وتتحدّث! ؛ ماذا يحدُث، ألستُ أبكما؟ ولكن كيف وأنا أسمع صوتي يتحدّث!

- أنا الروح ، الهواء ، العقل ، السحر ، الخيال ، الجنون ، أنا المنطق ، أنا الدماء، القتل ، أنا عزرائيل ، أنا الموت ، أنا السور ، الرياح ، أنا سحرة فرعون ، أنا فرعون، أنا البعث ، الخلود ، أنا التفاحة الملعونة ، أنا آدم ، ، أنا .....

الدم يعلو ليصل إلى صدري فرقبتي فحلقي ، أتجرّع دمائي ، أُحاول التقيّؤ ولا أستطيع ، الدماء تندفع رغماً عنّي إلى فمي...

الغرفة أصبحت قانيّة اللون.

أري السماء حمراء اللون في سقف الغرفة !

أميّز من الظلام الذي سيطر على المكان باباً أسود مكسوا بالدماء، أفتحُه لأجد نفسي بالمقابر ..

على اللوحة الفضيّة نُقِشَ دانيال أرماي داود " ١٩٦٠ - ٢٠١٥ " زوج بار وأب مُحب ، انكفأ القبر كعقرب الساعة بزاوية ٩٠ درجة.

خرجت من جانبِه حشرات سوداء اللون ودون إعلام مُسبّق تتحوّل الحشرات لتُصبح بحرًا من الدماء ،

الدماء تُغرقني.

الهواء يترُك رئتيّ ..

انعدمت الرؤية وأظلمت الإضاءة كمن ضُرِب رأسهُ بمطرقة فأفقدتهُ الحياة صحَوت ..

إضاءة مرّة أُخرى.

باب أحمر مدوّن عليه اسم " ماريا أرماي داود".

إنها زوجة دانيال أو ابنتُه !

ينفتح الباب عن أنثى في نهاية العقد الرابع ، شقراء تضع المساحيق تُمشّط رأسها فيخرجُ دماً.

تتحوّل الرؤية إلى قبر قاني اللون يحمل اسمها بجانبه تاريخ " ١٩٦٧ - ٢٠١٥".

ينكفئ القبر على وجهه تخرُج العجوز تحتضنّي ..

فأجد نفسي أمام المرآة في غُرفتي أتحسس وجهي الذي شحب وعيني التي خفتت معالم الحياة بها إثر ما رأتْ.

ولويس يصدح:

" i love to climb a mountain .. and to reach the highest peak"

ارتخيت ثُم سقطت على أرضيّة الغرفة كمن سقط من الطابق العشرين.

فانطفأت الإضاءة بغتة....

***

لا أعلم كم من الوقت لبثتُ نائماً ، فلقد غَرِقتُ في النوم دون الشعور بأنفاسي ، فتحتُ حدقتيّ بشق الأنفُس فعالجتني بحرارة مُباغتة وصداع نصفي مزّق رأسي ، النمل يَسري في جسدي كسريان الدماء في الأوردة ، لا أقوى على تحريك قدميّ ، بعد المحاولات انهارت أعصابي و ارتطم جسدي بالأرضيّة فاستسلمت واستندت على الحائط بظهري، أشعلتُ سيجارة وجدتُها مُلقاة بجانبي ، أضاء هاتفي برسالة " جراند الدور الأول".

نظرتُ في الشاشة المُضيئة فوجدت التاريخ ١٤ ديسمبر - الساعة ٤:١٢ عصراً ، لقد غفوتُ ليومَين كَامِلَين، فعندما تحدُث الصدمات يندفع الأدرينالين في الجسد وبزيادة شدة الصدمة يزداد إفرازُه فيسقُط الجسد بغتة كسقوط أوراق الشجر في فصل الخريف.

تذكرتُ ما حدث قبل يومين.

فأغلقتُ حدقتيّ ونفثتُ دُخان سيجارتي ضيقاً، الأهوال تملؤني والأسئلة تندفع إلى خُلدي كاندفاع الماء من شلال آنجل* ، نهضتُ مُستنداً على الحائط خلفي، طقطقة ظهري أسمَعت الجدران حولي ، نظرتُ في المرآة فوجدت كائنًا هزيلًا يرمُقني بنفس هيئتي، لهُ ذقن سوداء تكسوها بعض الشُعيرات البيضاء تُعطيه هيبة ملك ، شفتان رفيعتان أسفل عينين بُنيّتي اللون ، وجه خمريّ وشعر ناعم مُسترسل يصل إلى الكَتِف ، لم يكُن ذلك الهزيل إلّا أنا ...

كاحلاي يخونانني إثر عدم اتزان ملحوظ ، تحركتُ ساحباً كُتلتين من الحديد الصدئ في هيئة أرجُل.

فتحتُ الثلاجة فوجدتُها مُمتلئة فأدركتُ أن " فتحي" حارس العقار أتاني

بالمخزون الجديد، أكل وخضراوات وزُجاجات بيرة و كرتونة تشيفاز ريغال، " حبيبي يا عم فتحي " نطقتُها بداخلي فلم تخرُج الكلمات من فمي.

رائحتي كريهة كتغوّط كلب.

استسلمتُ لقرار الدُش الساخن ، ذهبتُ إلى الجرامافون ثم أدرجتُ به قرصًا يعود لفيروز فأتى الصوت عزباً :-

" سألتك يا حبيبي لوين رايحين ، خلينا خلينا وبتسبقنا لسنين".

ذهبتُ إلى الحمام.

ارتيمتُ بجسدي في البانيو.

علت المياه الساخنة جسدي.

هبطتُ برأسي في الماء ، فتوقف عقلي وأنفاسي بالكاد أسمعُها ، هدأ المكان إلّا من أنفاسي وصوت خرير المياه فغفوت رغماً عنّي مرّةً أُخرى ....

نفس اليوم.

الساعة الخامسة مساءً.

في حيّ الزمالك ارتمتْ "حياة" على كُرسي أمام شاشة اللابتوب ترتدي قميص نوم ديكولتيه أسود اللون وشعرها مُنسدل على وجهها ليُعطيها منظرا مهيبا أكثر من " داكوتا جونسون ".

ممثلة فيلم "fifty shades of gray".

وكانت في ذلك الوقت غارقة تبحث في جميع صفحات التواصل الاجتماعية عن " آدم " واضعة " Adam " في مُحركات البحث، بعد دقائق ظهرت النتائج مُخيّبة للآمال، فلم تجد ضالتها كما ظنّت.

فذهبت لمُحرك البحث " google " ثم كتبت " حادثة أفضتْ بشاب إلى البُكم " فلم تجد شيئاً مُفيداً يُذكر.

ظلّت على هذه الحال ما يقرُب من ساعة، إلى أن أفاقتها نغمة الهاتف حين أضاءت الشاشة باسم " إنجي إيج".

- ألو.

قالتها حياة فعقّبت إنجي.

- ازيك يا حياة؟

أمسكت حياة بخُصلة من شعرها ثم صنعت منها دائرة بُنيّة اللون في الفراغ حولها ، فهي تعلم جيداً أن إنجي لا تُبشّر بخير.

- الحمد لله.

قالتها حياة وعيناها شاردة في شاشة الحاسب أمامها.

- عاوزينك عند الميدان عشان تحقيق قتل الراجل اللي اسمُه بطرُس، دا انتي اللي هتكتبي مقال الحادثة.

- ابعتيلي العنوان وهلبس واجي.

أرسلت إنجي العنوان في رسالة فقامت حياة شاردة تلعن إنجي والمقالات وبطرُس ذاك.

نفس اليوم.

الساعة السادسة مساءً.

صوت رسالة الهاتف أنبهني.

قرأتُ الرسالة ورأسي تحت الماء.

" متنساش الميعاد في جراند".

شهيق عالي عندما أخرجتُ رأسي ، أسحب الهواء إلى رئتيّ كسمكة القوها على البر فانتزعت ما تستطيع من الهواء بخياشيمها أملاً في شوط إضافي في الحياة ، قمتُ من الماء أتخبّط كمن صُلِب و بُعث للتوّ ، وضعت الملابس على جسدي المُهترئ ثم ذهبتُ إلى الصالة مُشعلاً سيجارة...

عقارب الساعة تدُق.

وتلدغني في كُل دقّاتها.

عقلي مشوّش كمجذوب.

قلبي يهتز كجبل أوشك على الانهيار.

يلدغني العقرب بين الحين والآخر، وبين اللدغة والأخرى، دقّ جرس الباب فانتزعني من شرودي.

عبرتُ من الممر وأنا أستجمع قواي التي انهارت محاوِلة تخفيف الألم، وبعد المُعاناة لم أستطع إلّا الحراك الخفيف.

خطواتي بطيئة كسُلحفاة تعبُر الأفُق.

مررتُ بصورة جمعتني بها وجمعت الصورة كمًا غير مُنمّق من الأتربة التي تشبّع بها قلبي خلاف الصورة.

طرقات مُتتالية على الباب جعلتني أذهب مُسرعاً لتيقُّني من معرفة صاحبة الطَرقة ، تعثرتُ في زجاجة ويسكي مُلقاة بجانب الجرامافون، جاهداً قُمت من مرقدي ثم تحرّكتُ وفتحتُ الباب لأجدها ..

كما هي ولكن زاد عُمرها عامين.

وأنا ..

زدتُ أربعين عاماً فوق العامين.

لم أعهد ذلك الصخَب في ملامحها يوماً.

جميلة كالقُدس .. لطيفة كحبّات الشتاء،

زهرة من زهور فيروز.

عبق تاريخي يُعلّم الأحبّة على مرّ الزمان يفوحُ منها.

هل أُدخلها قلبي أم أُخرجها من باب شقّتي؟

ظل السؤال يُراودُني حتّى انتزعتني من شرودي عندما اصطدم كتفها بكتفي عند عبورها من الباب، ثم التفتتْ مولّية ظهرُها للصالة.

فقالت بصوت أشبه ما يكون بصوت ملائكيّ اعتدتُ أن أسمعُه منذُ سنتين، وأكاد أجزم أنهُ البارحة!

- مش كنت بطلت التدخين؟

راقبتُها في صمت ولم أُعقّب.

- أنت مبتردش عليّا ليه؟

أشرتُ إلى الأريكة من خلفها حيثُ يقبع دفتر مُلاحظاتي والقلم، عندما تذكرتُ وضعي لهما بالأمس عند دخولي المنزل.

فأشرتُ مرّة أُخرى أن آتي بهم.

فقالت مُستنكرة:-

- دي حركة جديدة من حركاتك؟

حكمة ٢:- " لا تندهش من الكم الهائل من علامات الاستفهام في كلام إنجي (النساء) فهي دائماً تأخُذ وضع المُحقق وتطرح الأسئلة ".

فكتبتُ.

- مبقتش بعرف اتكلّم، حصلت حادثة وفقدتْ النطق، بس لسا بسمع.

اضطربت ملامحُها ورمقتني بنظرة شفقة.

اقتربتْ لمُلامسة وجهي فأبعدتُ يدها.

فقالت بغضب.

- أنا راجعة عشان عاوزه اتكلّم معاك.

- بس انا مش عايز اتكلّم يا إنجي.

- وانا عايزه.

- ما هو مش تغيبي سنتين وترجعي فاكره هتلاقي لعبتك زيّ ما هي.

كتبتُ الكلمات وملامح وجهي غاضبة أكاد أنفُث اللهب من الجمرة الموضوعة في رأسي المُسمّاة بالصداع.

- ما علينا، عاوزينك في تحقيق ومفيش غيرك هيعرف يساعد.

قالتها إنجي فكتبتُ.

- أنا سيبت الموضوع دا من زمان.

وأكيد عرفتي، وكمان انا أخرس دلوقت، مظنّش هقدر افيدكم.

- طريقة القتل واحدة، قاتل طايح بقاله سنة ونص، قنّاص محترف، وساعات بنلاقي جثث سبب موتها سكتة قلبيّة من غير أي سبب فجأه كدا، الأول قولنا حالات مرضية، بس اكتشفنا بعد كدا إنه كان بيسيب علامة سكينة في مكان

الجريمة وتحتها نقش " m"، مفيش غيرك بيعرف يكشف الجرايم المتتابعة اللي زي دي.

- أنا اعتزلت.

خرجتْ منها ضحكة عند رؤيتها جُملتي في الدفتر فأردفتْ حديثها قائلة في سُخرية.

- دا كل ستات القسم حتى بيسألوا عليك، اختفيت ومكنش ليك أثر، والشقة ملاحظه ان مبقاش فيها عفش يعتبر، لازم ترجع لشغلك عشان تساعد نفسك وتساعدنا نلاقي المجنون دا.

دار بخَلَدي جُملة " مش يمكن انتم اللي مجانين مش هوّ " ولم أكتبها، فلقد تذكرت موعدي في الجراند.

- معلش عندي ميعاد و...

بتر كتابتي صوت جرس الباب مرّة أُخرى.

ذهبتُ إلى باب الشقة فوجدتُ سليلة الجذع الفرنسي رابضة أمامه.

فابتسمتْ في ود ثم قالت:

- كنت هنا في الميدان فُتّ على جراند اطلُب قهوة عشان عندي شغل طول الليل فا جيت في بالي، سألت عنك نص اللي هناك لحد ما لقيت طارق اللي بيعزف دا عارفك، وقاللي على عنوانك قولت اعدّي عليك.

وعرفت من طارق انك عايش لوحدك فجيبت أكل وجيت اشوفك قولت نتعشّى سوا واروح شغلي.

قاطعتنا أم الغولة (إنجي) عندما أتى صوتها واضحاً من الصالة.

- طيب يا آدم هجيلك بكرا نشوف موضوع اعتزالك دا.

لمحتُ جحوظ عينيّ حياة لتمييزها صوت " إنجي إيج".

تحركتْ إنجي ناحية الباب، عندها وجدتْ ضرتها فشحذت أسنانُها قائلة.

- لسا زوقك غجري زي ما انته. مبتتغيّرش.

ثم أمسكتْ بخُصلة من شعر حياة وأردفتْ في مكر أفعى:

- ازيك يا حياة، مش عندك مقال تكتبيه برضه، ولا جيتي لآدم عشان خطُه حلو؟

بهتت ملامح حياة من الخجل ولم تُعقّب ثم همّتْ بالرحيل فاستوقفتها مُمسكاً رسغها بقوّة.

وكتبتُ بسرعة فظهر الخط مُنبعجاً.

- متمشيش.

ابتسمت حياة حتى تورّد خدّاها ، وإنجي بجانبي تكاد تحرق قميصي من الغضب ، نظرتْ لنا نظرة احتقار ثم قالت وهي تتحرّك نحو المصعد دون أن تنظُر إلي.

- عموماً فكّر في عرضي، ولا موحشتكش ستات القسم؟

لم أُعقّب.

سحبتُ حياة إلى داخل الشقة وأغلقتُ الباب خلفنا.

بابتسامتها الساحرة قالت:

- بتبصّلي كدا ليه؟

- تخيّلي لو القمر قاعد قُصادك، كام مرّة عينك هتتشال من عليه؟

ضحكتْ فكتبتُ.

- ولا مرّة.

حكمة ٣ :- " في المقابلة ما بعد الأولى أظهر لها تعجُّبك الهائل بكمّ جمالها ، أفرط في الحديث الذي تُثنيها فيه، واصمت إذا تحدّثتْ وأظهِر اهتماماً، وإن كان النقاش حول طلاء الأظافر".

- بتحبّها؟

جاءني السؤال مُباغتاً فكتبتُ إجابة كُنت قد تيقنتُ منها منذ فترة ليست ببعيدة.

- كُنت ، كل الحاجات بتخلص عشان يجي مكانها حاجات تانيه.

- يومين متظهرش ، ولمّا الاقيك الاقي إنجي عندك، مع إنها مكلماني من كام ساعة عشان اكتب مقال عن حادثة قتل، صُدفة غريبة مش كدا!؟

- مفيش حاجة اسمها صُدفة.

- فيلسوف كمان ، وإيه موضوع اعتزالك دا؟

- كنت مُحقق جرايم قتل في قسم التحرير، إنجي كانت بتطلب مساعدتي في تحقيق أظن ان هو اللي انتي هتكتبي عنه المقال.

- واضح انك رفضت.

- مبقتش حمل الشغلانة دي.

مدّتْ يدها لتُسلّم علي بحفاوة.

- حياة أحمد الألفي.

صحفيّة في جريدة التحرير وتحت أمر معاليك في أي مُساعدة عشان متحسّش بحمل.

الكلمات تخرُج منها بدلال طفلة كبيرة. الحرف يقلب توازُني رأساً على عقب، ويجعلني أقع في غرامِها أكثر.

كتبتُ.

- آدم إبراهيم الراوي ، والدك وزير الإعلام مش كدا ؟

- آه بس بابا ملوش دعوه بشغلي، أنا في قسم الحوادث يعني مفيش تطبيل.

ضحكتُ عند سماعي إيقاع جُملتها. فضحكتْ.

- عارفة ليه الناس بتقول على الواسطة كوسة؟

- ليه؟

اعتدلتُ في جلستي ثم كتبتُ.

- زمان في السوق كانت كل الأسواق بتقفل بدري ما عدا الكوسة، كانت بتفضل فاتحة لحد ما التُجار يجيبوا البضاعة الجديده بتاعة اليوم التاني، فكانت الزباين تطلب تشتري يرفضوا، ييجي التاجر ينادي من برا يقول كوسة، يقوموا فاتحينله ومن ساعتها الكوسة رمز للواسطة.

ابتسمتْ ثم مدتْ يدها لتُلامس وجهي، لم أُبعدها، تركتُها تتخللني كقطعة حديديّة تخترق الجسد بغتة في نعومة.

- كنت فين من يومين؟

- كابوس فظيع، من وقتها وانا نايم.

ظهرتْ ملامح القلق على وجهها.

- كابوس إيه ؟

كتبتُ لها أحداث الكابوس المُزعج، فلمستُ القلق في ملامحها ، حاولتُ أن أُهدئ من روعها بكلمات لا تُهدّئ من روعي شخصيّ، فما رأيتُه كان غريباً بحق.

تناولنا العشاء ثم ارتديتُ بدلة زرقاء داكنة وقميصاً أسود اللون.

رمقتني بنظرة إعجاب واضحة عند انتهائي ولم تقل شيئاً من الإحراج ، دلفنا إلى المصعد ...

تخلّلتْ أصابعها المسافات بين أصابعي مرّةً أُخرى.

عندها أخرجتُ الدفتر من جيب سُترتي الأيمن، كنت أفكر في أن أكتُب لها " مقولتش كلام حلو المرّة دي عشان تمسكي إيدي "

وبعد ثوانٍ أودعتُ الدفتر مكانه مرّة أُخرى دون أن أكتُب حماقاتي المُعتادة ثم أمسكتُ بيدها أنا الآخر وعبرنا من البوّابة إلى الشارع وهي تنظُر إلي كمن تنظُر إلى إله نزل للتو من السماء ليتأبّط ذراعها الأيسر ...

نسمات الهواء تضرب الوجوه والقلوب الشتاء يُداعب الآذان ويبعث ببعض النقاط من السماء كعلاوة على شاعريّة الجو.

استوقفتُ عربة أُجرة فمنعتني قائلة:

- هنمشي يا آدم.

أصبحتُ سيّد الخلق عند سماعي الاسم من شفتيها.

هززتُ رأسي موافقاً فأردفتْ:

- هنروح الميدان، عندي تحقيق هناك هكتب مقال عنه.

هممتُ لأُخرج الدفتر من جيبي لأكتُب فاستوقفتني.

- متطلّعش النوتة وتتعب نفسك، أنا هفهمك من غير كلام وصلني بس وبعد كدا روح ميعادك، وانا لو خلصت بدري هعدّي عليك.

حكمة ٤:- " تُحب بعض الإناث وضع الكثير من " الأنا " في الحديث فأعطها المساحة للسيطرة ثم توغّل في قلعة سيطرتها وهشّم جدرانها تاركاً بصماتك على مقابض الأبواب".

حكمة ٥:- " النساء تُحب فقد السيطرة بعد منتصف مرحلة البداية".

كنت قد حكيتُ لها مُسبّقاً عن رسالة استدعائي للدور الأول بالجراند.

وصلنا الميدان وكلٌ منّا ينظُر للآخر، غير مُهتمين بعلامات مكان الجُثة المُلقاة على الأرض ورجال الطب الشرعي المُنتشرون في المكان كحبّات السكّر في مصانع السكّر ...

رجال شرطة ذوو بدل سوداء، وآخرون يلبسون قمصاناً بلا سترات.

محققون كثيرون، دلالة على أهميّة القضيّة، وإنجي تتوسّط دائرة من المحققين الصغار وتحدجهم بالنظرات وبعض الكلمات.

عندما لمحتني أبعدتْ عينيها عن مرمى وقوفي أنا و حياة في ضيق، عندها

قاطعتْ حياة متابعتي للمشهد الذي كنتُ قد اعتدتُ عليه فيما سبق، وظننتُ بتركي إيّاه أنه لن يُلاحقني راكضاً ورائي حتى يتربّص بي مرّةً أخرى.

- مش ناوي تساعدنا، لو مش عشانهم يبقى عشاني مثلاً.

السبب بدا مُقنعاً كفاية.

لم أكتُب ، اكتفيتُ بابتسامة صغيرة ردتها لي بابتسامة ملؤها الغنج.

فربتُّ على كتِفها ثم رحلتُ إلى وجهتي ورأسي تُفكّر في العرض الذي قدمتهُ لي...

جراند متروبوليس.

الساعة العاشرة مساءً.

درجة الحرارة ١٠ Ċ

" الظهور".

المكان هو المكان.

والناس هم الناس.

وأنا لستُ أنا ...

صعدتُ الطابق الأول أتمالك أعصابي من الانهيار إثر البرودة ، حدّجني حارس أصلع مفتول العضلات في منتصف العقد الثالث بنظرة حادة عند مروري من صالة الطابق فأتى إلي ثم أمسك بعضضي قائلاً في حزم:

- تعالا معايا.

التزمتُ الهدوء على غير عادتي ومضيتُ قدُماً إلى منضدة في آخر الرواق جلس إليها رجُل في نهايات العقد الخامس، ذو شعر أبيض مسترسل ، لهُ أعيُن خضراء وشارب أبيض منمّق تحت ملامح أرمانيّة المظهر تكسو وجهاً لرجُل رياضي أبيض مُمسكاً بيدهِ اليُسرى سيجارة كوبيّة النوع واليد اليمنى تفعص قطع الثلج في كأس الويسكي ؛ وعلى جانبيه يقف حارسان وشخص ثالث يقف في ترقّب، هيئتُه تنم على أنه مدير أعماله ، عندما أصبحتُ بمحاذاته كان علي أن أُخبرهُ من أنا ولكن بطريقتي ، سدّتُ لكمة إلى طُحال الحارس فطرحتهُ أرضاً كخرقة بالية بجوار حذائي الأسود.

- shit

عقّب بها الأرماني ثم هوى بيده اليسرى على المنضدة في غضب قائلاً بلهجة ركيكة حاول إخفاءها.

- سليم.

اقترب رجُل (مدير الأعمال) في العقد الرابع مسرعاً كمن فعص ذيل قط ، وجه خمري وسيم ، شعر أسود مُجعّد ولحية رماديّة يتوسطها أنف مُنبعج تحت أعيُن بُنيّة.

- أوامرك.

- هو انا مش قولتلك تجيب رجالة، ولا انت بتنقّي اللي بيكيّفوك في السرير وخلاص؟

ملامحهُ أصبحت بين دجلة والفُرات من الإحراج ، نكس رأسهُ في الأرض وعقّب في نبرة جاهد ليجدها.

- آسف يا سيف باشا مش هتتكرر.

مد يدهُ إلي في سلام بهدء أعصاب وكأن شيئاً لم يكُن.

- سيف الزهار.

سيف الزهّار.

" رجُل الساعة كما يقول الساذجون ، مشاريع خيريّة وإسكان للشباب ومُرشّح لوزارة العدل وعضو مجلس شعب حالياً ، وعلى الصعيد الآخر فهو رجُل التساهيل والعلاقات الأول كما نقول ، مروّج مخدرات وتاجر أسلحة وحدّث ولا حرج يُلقّب بـ " قوّاد علية القوم " ، ما يدور " تحت التربيزة " يكون تحت إمرته فهو مالكُها في الأساس.

وللعلم :- الزهّار هو رئيس القتلة المأجورين أيضاً".

لم أُعقّب..

اكتفيتُ بمصافحة يده التي بدت قويّة مقارنةً بسنه فأردفْ مُستكملاً رمي الجمرات على شيطانه المأجور.

- التعامل من دلوقت بقا معايا ، بطرُس مينا خلاص بح بيحققوا في جريمة قتله في الميدان.

ثم أخرج من جيبه صورة حجم 6 * 6 وضعها على المنضدة واضعاً يدهُ عليها ثم جعلها تزحف كالحيّة تجاهي، بعدها قال في ثقة:

- يوسف طاحون ، واد شقي كان معانا بس طمع عاوز ياخد نص التورتة قولتله يا جو خد الربع موافقش، وانا بكره اللي يرفضلي طلب والطمع وحش.

سحبتُ الصورة مُلقياً نظرة على ملامح عنيفة وجسد مُصارع لرجُل في العقد الثالث ذو شارب أسود وصدر عريض وعضلات نبت لها جسد وليس العكس

يقف ممسكاً بسيجاره وبجواره سيف الزهار يبتسم !

لمح سيف الاندهاش في ملامحي فعقّب

- متستغربش، take it easy مش الأوّل ولا الأخير ومتنساش .. الطمع وحش.

أعلم جيداً أنهُ يُهددني.

ولكن سأتركهُ يعبُر ويأخد السيطرة وسأُهشّم جدران قلعته عندما يحينُ الوقت.

وضعتُ الصورة في جيب سترتي الداخلي فعلم أنني موافق.

رفع سبابتهُ في الهواء.

فأتى سليم بظرف بُني اللون ، التقطهُ سيف وناولني إيّاه قائلاً.

- دا الحساب كلّه ، سيف الزهار معندوش قبل وبعد التنفيذ لأني واثق م التنفيذ.

بدا واثقاً كعالم إلكترونيات وليس مُستأجر عزرائيل.

أودعتُ الظرف بجوار صورة طاحون ثم وقفتُ مُستعداً للذهاب فعاجلني ممسكاً رسغي.

- خد بالك، يوسف مش هينفع معاه شغل الفرافير والكيماويات بتاعك دا، دا واد نسبة الكيميا في جسمه أكتر من الدم، اديلُه الموتة الل يستحقها ومتخلهوش يتألم، دا كان friend مهما كان.

هززت رأسي متفهّماً ثم رحلتُ إلى المنزل ...

ميدان التحرير.

الساعة الحادية عشرة مساءً.

درجة الحرارة ٨ C̊

الجو مُحتقن برغم البرودة التي تعُم المكان، فالجميع يريد الرحيل.الوجوه نائمة تحاول الثبات، الأسئلة كثيرة مقارنةً بالأجوبة التي تكاد تكون غير موجودة من الأساس.

من بين الجموع كانت تقف حياة في ذهول فجذبت إنجي انتباهها.

- عاجبك آدم؟

- هو ازاي بتقولي ان الراجل دا تبع نفس القضايا وهو مرمي في الشارع !

وكمان مفيش العلامات اللي بيسيبها القاتل دايماً.

- القاتل ضرب بـ **sniper** من سطح البيت دا ، الرصاصة عدّت من الإزاز دا.

قالتها إنجي وهي تُشير بيدها إلى نافذة تقع في الطابق الثاني ثم أردفتْ قائلة

- دا بقا بيت بطرُس مينا ، ساعتها كان وشّه للإزاز ومن سوْء حظه ان فيه شباكين موازيين لبعض، فالرصاصة لما عدّت من الشباك الأول اخترقت قلبه بس، بسبب قوة دفع الرصاصة الجسم رجع لورا، فوقع من الإزاز التاني دا في الشارع وبالنسبة للعلامات لقيناهم في الشقة، تقدري تطلعي تشوفيهم لو عايزه.

- مش قادره ، هروّح.

- هتروحيله؟

لم تُعقّب حياة، فاشتعل الغضب في صدر إنجي فهوت بالحديث على رأس حياة قائلة:

- دا بتاع حريم وكمان اخرس، مفيهوش حاجة عدلة وانتي شكلك بنت ناس وتستاهلي حد احسن من كدا.

- أنا مستاهلش غيره، ولو مفيهوش حاجة عدلة طلبتي مساعدتُه ليه؟

كان وقع الجُملة ثقيل، فـ حياة قطة ولكن مخالبها تحز عُنق الأسد في عرينُه إذا أرادت.

- بكرا تندمي.

قالتها إنجي باستخفاف فأعقّبت حياة:

- تصبحي على بكرا.

قالتها حياة ثم أدارت ظهرها غاضبة من كلام إنجي ولكن هناك ما يعتمل في قلبها من حب لآدم.

بعدها استوقفت عربة أجرة.

- الزمالك لو سمحت.

- بعد ٥ دقائق -

- معلش بس ممكن تودّيني ١٥ مجمّع التحرير؟

رمقها السائق بنظرة ضيق في المرآة

ثم سلك طريقه عائداً إلى ١٥ مجمّع التحرير.

-

دلفت حياة إلى المصعد ثم أعطته الأمر بالصعود إلى الطابق الرابع، وعندما أصبحت أمام باب شقته ترددت قبل أن ترن الجرس ولكنها فعلت ، دقائق قليلة قبل أن ينفتح الباب عن آدم.

احتضنتني ..

كأم تحتضن وليدها الأول بعد سنوات عديدة دون إنجاب...

غُصتُ فيها...

جُبتُ الأرض من مشرقها إلى مغربها ، أصبحتُ الجبال والهواء والأرض تارة والسماء والطير والكواكب تارة أُخرى ، رأيتني ملكاً ورأيتني قديساً ، رأيتني رساماً وشاعراً.

رأيتني إنسانا للمرّة الأولى في حياتي..

- وحشتني.

قالتها بلهفة فسحبتُها من يدها إلى الصالة ثم أدرجتُ بالجرامافون قُرصاً لفرانك سيناترا.

فزيّن صوته نسمات الهواء حولنا وتخللها بأغنيّة " sway ".

أمسكتُ يدها وبدأنا نتمايل ونرقُص على النغمات ...

الأرض خلت من البشر.

والجبال اندثرت.

ونحنُ نرقص وحدنا كالمجاذيب في صحراء صالتي ، جلسنا بعد خمس دقائق مرّت وكأنها دهر في النعيم، ظلّت ترمقني وأرمُقها..

اللعنة فكم أحتاجُ صوتي الآن.

- عارف ، أنا نفسي أسمع صوتك.

وكأنها تعرف ما يدور بداخلي.

دلفتُ إلى الغرفة الأولى.

ثم أخرجتُ آلة الكمان من صندوقها الزُجاجي وسحبتُ الدفتر من على الكومود ثم عدتُ إليها كاتباً.

- اعتبري نفسك بتسمعيه من الكمانجة دي.

وقفتُ مُعتدلاً واتخذتُ وضعيّة العازف

" أندريه ريو " ثم بدأتُ بمُنادات شياطيني وبدأتُ بقدومهم عزف مقطوعة "the lonely shepherd ".

نظرتْ إلي في إعجاب وذهول بابتسامة تهب الخلود عند سماعها العزف ، شردتْ عيناها وعقلها كلما استمررت في العزف.

اختلطت دموعي بحبّات العرق على لحيتي فقامت واحتضنتني ثم أجهشت بالبكاء هي الأُخرى.

فبترتُ عزفي كمن سمع إسرافيل* يُنادي في الخلق بالبوق الخاص به لحظة البعث

ثم كتبتُ.

- أنا لو اعرف اني هخليكي بالمنظر دا مكنتش عزفت.

فقالت وصوتها مُختلط بآثار الدموع.

- بالعكس انت عازف عظيم، أنا بس افتكرت حاجة.

- المرة دي أنا اللي بقولك احكي لي.

- ماما.

قالتها ثم ازداد نحيبُها أكثر فأجلستُها على الأريكة وأحضرتُ لها كوب ماء.

ثم أرخيتُ رأسها على صدري فأردفتْ عند شعورها بالأمان قائلة:

- من ٣ شهور كنت في بيروت انا وماما و بابا ، كنا بنتفسّح وفي نفس الوقت بابا كان عنده شغل فـ في يوم طلبنا منه ييجي معانا سهرة بيعرضوا فيها فيلم عن تاريخ مصر، المهم قال بعصبيّة ان عنده شغل كتير ، يومها السهرة اتلغت وروّحنا البيت على طول ، ملقناش بابا ، طلعت أوضتي وبعد شويّة سمعت ماما بتصرخ.

رفعتْ رأسها ثم نظرتْ في عينيّ وأردفتْ قائلة:

- جريت على مكان الصوت لقيت بابا والشغالة عريانين في السرير وماما واقعة على الأرض بتعيّط.

قبّلتُ وجنتها وأمسكتُ يدها ثم أشرتُ بوجهي باعثاً الهدوء في قلبها أن أكملي.

- بابا فضل يصالح فيها و يقولها غلطة يا عليّا ومش هكررها، ماما سامحته فعلاً بس بعد شهر الموضوع اتكرر والمرة دي مع صوفيا مرات الوزير السابق أحمد داغر ، ماما وقتها مستحملتش ، تاني يوم خبطت عليها الباب كتير مفتحتش، لحد ما لقيت دم جاي من تحت الباب ففتحت بسرعة لقيتها واقعة على الأرض وشرايين إيدها الشمال مقطوعة والدم مغرّق الأوضة كلها.

تهدّجت أنفاسُها ، بكتْ حتى سعلت قاومتْ جاهدة لتلتقط ما تبقّى من أنفاسها ثم حاولتْ موازنة كلماتها قائلة.

- الدكاترة ملحقوهاش ، بابا السبب وبعدها بيوم رجع مصر ولا أكن فيه حاجة حصلت ، فضلت انا هناك ومنزلتش إلا من أسبوع فات، دلوقت حتى مش قاعده معاه بس بتوصلني أخباره إنه على طول سكران وكل يوم مع واحدة وإنهم مقعدينه في الوزارة شفقة ، كل دا ذنب ماما.

- انتي كمان وحشتيني.

كتبتُها مُخففاً احتقان الجو فاختلطت دموعها بابتسامة فرح فكتبتُ.

- مش دايماً أهلنا بيبقوا زي ما احنا عايزين ، وموتها دا كان كدا كدا هيحصل، لو فضلت موجودة زي الشبح وسطكم عارف ان وجودها تعبانة أحسن كتير من عدم وجودها، بس مفيش حاجة بإيدك غير انك تطلبيلها الرحمة.

نظرتْ إلي نظرة طفلة غارقة في أحضان أبيها.

- انت بقا كنت بتعيط ليه؟

- نفس السبب ، بس أبويا وأمي الاتنين ماتوا من سنة ونص ، ساعتها مبقتش بعرف اتكلّم ، الدكتور قال انها صدمة نفسية ممكن تروح مع حصول صدمة تانية أو متروحش خالص.

- قوم هننزل.

قالتها ثم أمسكتْ يدي وسحبتني كطفل صغير تسحبهُ والدتُه في حنوّ...

النيل.

الساعة الواحدة

بعد منتصف الليل.

الجو قارس البرودة ، باعة المناديل والياسمين يتجوّلون مُمشّطين الأرجاء ولم يسأموا بعد من استجداء العاشقين لشراء بضاعتهم البالية... أخرجتُ سيجارة وأشعلتُها مُستحلباً نيكوتينها، كانت تجلس بجانبي جميع نساء الأرض متمثّلين في جسد حياة ، الأُنثي الوحيدة التي أشبعتْ رغباتي تجاه النساء الأخريات قبل أن تجتاح يداي جسدها كالبقيّة ، فلقد اعتدتُ على اعتلاء العديد من النساء في المقابلة الأولى.

حكمة ٦ :- " الأنثى التي تُعجب بها ولا تُفكّر فيها في دورة المياه بعد مقابلتكم الأولى تيقّن أنك ستُحبّها".

ضوء القمر ينعكس على الماء فيعكسهُ على وجه حوريّة تجلس بجواري.

عندما نظرتُ لها أسندتْ رأسها إلى كتفي ناظرة للسماء ثم بدأتْ حديثها بعد صمت طويل مُتسائلة.

- تفتكر احنا اتخلقنا ليه !؟

كتبتُ.

- عشان نتوجع.

أردفتْ وهي تنظُر في عينيّ.

- إجابة مقنعة بالنسبة لشخص عنيه مفيهاش غير وجع.

- السذاجة هي أكتر شيء ممكن يخلق الوهم بالسعادة، بس على النقيض أكتر الناس وهما همّا أذكاهُم للأسف.

هطل المطر فوق الرؤوس ومنير يُغرّد من مركب تشُق النيل.

" من غير كسوف قولتي انا عشقاك .. انا بعترف بهواك .. دا انا من زمان عيزاك تبقى حبيب قلبي".

حينها لمحتُ المركب وهي تحمل اسم " Tahoon" عليها.

فتّشتُ بعيني طوابقها الثلاثة في سرعة فوجدتُ ضالتي في الطابق الثالث واقفاً في ثقة...

رجُل في العقد الثالث ذو ملامح عنيفة وجسد مصارع، وجه يكسوه شارب أسود منمّق مُحاطاً بفتاتين من بنات الحور.

لا أعلم لماذا اضطربت أنفاسي وظننتني أعرفهُ لكنّي لم أُعرهُ انتباهاً بعد التقاء الأعيُن للحظات ، لم أتذكّرُه فالتفتُ بوجهي تجاه حياة التي أشاحت بنظرها إلى النيل.

- بتحبّي النيل ؟

سألتُها ثم وضعت الدفتر أمامها لترى الكلمات.

فقالتْ مُجسدة نبرة صوتي التي لم تسمعها من بعد:

- بحب شكل المايّه.

ضحكنا حتى عبرتْ الضحِكات السماوات السبع واستقرت عند عرش الإله...

تجرّعتُ زُجاجة " تشيفاز ريغال " كاملة عند عودتي للمنزل، وأثناء احتسائي لها نزعتُ الصورة التي جمعتني بإنجي من على الحائط ثم أودعتُها القمامة في المطبخ، بعدها خلعتُ ملابسي ثم اتجهتُ إلى الحمام...

الماء الساخن داعب أُذناي والنيكوتين أرخى عضلاتي عندما سحبتُ أنفاس سيجارتي الأخيرة.

حدقتاي تُغلق كالعادة رغماً عنّي.

انطفأت الإضاءة فجأة ثم بعد ثوانٍ ظهر نور أبيض ساطع.

***

- الليلة .. ولا ألف ليلة وليلة ، بنقدّملكُم برعاية سيف باشا الزهّار الفنان المبدع

عندها قُرِعت الطبول الإفريقيّة ووجوه الجماهير تعلو أكثر في ترقُّب.

- البلياتشو الصامت ، آدم الرااااوي

تصفيق حار من الجماهير...

فجأة وجدتني على المسرح الخشبي نظرتُ للأسفل فوجدتُ حذاء أحمر اللون وعند صعود عيني على جسدي بالتدريج تأكدتُ أنّي ذلك البلياتشو.

عندها أظلمتْ القاعة بغتة وأضاء نور قاني زاوية وقوفي فصُعقت ثم جثوتُ بركبتيّ على الأرض أُخفي وجهي بيدي

فضحكتْ الجماهير ضحكاً هيستيريّاً، بعدها أضاء كاشف النور بُقعة أُخرى على المسرح...

فرفعتُ رأسي ناظراً من بين يديّ في خوف فوجدتُ حياة تقف في ملابس المجذوبين وتصيح دون أن يخرُج الصوت من حلقها.

ركضتُ نحوها وعند وصولي لزاوية وقوفها انطفأ نور الكاشف عنها ولم أجدها.

وجدتُ نفسي بين الجماهير !

أضاء الكاشف الكرسي الذي جلستُ عليه بينهم وسمعتُ نفس صوت الرجُل الذي تحدّث في البداية يقول مرة أُخرى.

- آدم الرااااوي.

تصفيق حار مرّة أُخرى...

عندها وجدتني على المسرح فنظرتُ لأسفل فرأيتُ حذاءً أسود اللون وعند صعود عيني على جسدي بالتدريج

كُنت أرتدي بنطالاً وسُترة لهُما لون أزرق داكن وقميص أسود اللون

وفي يدي آلة الكمان من الصندوق الزُجاجي !

عندها مُرغماً بدأتُ العزف في حِرفة،

الإيقاع رتيب ولكن ذو أصل فنّي ، عند وصولي إلى منتصف المقطوعة أضاء الكاشف ثلاثة كراسٍ مُتجاورة في المسرح جلس عليها كُلٌ من سيف الزهّار ، يوسف طاحون، وسليم احتلّ المُنتصف بينهُما.

انقطع وتر آلة الكمان فجأة فضحك الثلاثة بصوت مكتوم.

عندها رأيتُ الحارس الذي طرحتهُ أرضاً يرمُقني من الظلام.

انطفأت الإضاءة مرّة ثانية.

ثم....

- الليلة .. ولا ألف ليلة وليلة بنقدّملكم برعاية سيف باشا الزهّار الفنان المُبدع آدم الرااااوي.

تصفيق حار مرّة ثالثة...

فوجدتني على المسرح ولكن هذه المرة غريبة بحق، فلقد كنتُ عارياً تماماً والنحافة تحتلّ جسدي البالي فضحكتْ الجماهير عند رؤيتهم جسدي العاري، عندها انطفأ الكاشف عن جُزئي السُفلي

وأضاء الجزء العلوي فقط ثم أضاء الكاشف بُقعتين بجانب يدي اليُمنى واليُسرى.

- معانا ومعاكُم دانيال أماري داود ، وحَرمُه ماريّا أرماي داود.

الصوت قادم من الأعلى فنظرتُ حتى أتبيّن صاحب الصوت وفجأة أحسستُ الهواء ينسحب منّي وأنفاسي تتسارع،

عندها نظرتُ إلى الكهلين فوجدتهُما يخنُقاني صائحين.

- قتلتنا ليه ؟

كان ذلك حين أظلمت الدُنيا وأفاقني صوت رنين الهاتف.

- الحق يا آدم حياة في المستشفى.

كان الصوت صوت إنجي.

ما زالتْ تحمل الطيبة تلك المخلوقة برغم ما ألحقهُ الزمن من خصال سيئة بها...

القصر العيني.

الساعة ٤:٣٥ فجراً.

الطابق الثاني.

حصلتُ على العنوان مسبّقاً من إنجي...

الإضاءة تتراقص وكأنها شُعلة عود ثقاب يضربها الهواء الشديد بقوّة ، الوجوه غاضبة تنفُث اللهب من الضيق ، مرضى كثيرون وشياطين عذاب وليس ملائكة رحمة يجوبون الطابق ذهاباً وإياباً يلقّبونهُن بالممرضات.

صرير الأبواب يُحطم العقول التي ما تزال سليمة بعد ذلك المشهد.

- رايح فين يا أُستاذ ؟

استوقفني صوت أجش قادم من خلفي فالتفتُ لأجد فتاة سمراء اللون شاحبة الوجه ، هزيلة البنية ترمُقني بإعجاب كمن رأت رئيس الجمهوريّة أمام أعيُنها، هممتُ لأُخرج دفتر مُلاحظاتي فقالتْ:

- أستغفر الله يا باشا كلُه إلا الحرام انت شكلك ابن ناس وطيب ، قولّي بس انت عاوز إيه وانا اخدمك من غير فلوس يا قمر انت.

أخرجتُ الدفتر فعقّبت.

- يوه يا باشا إن مكنتش تحلف.

فكتبتُ.

- حياة أحمد الألفي فين؟

- الله! الحلو ميكملش صحيح ، كمّل طوّالي لآخر الطرقة دي،

هتلاقي العناية المركزة على يمينك، هتلاقي عيّل سفيّف كدا اسمُه ربيع اغمزُه بعشرينابة وهيدخّلك عشان مفيش زيارة دلوقت يا قمر.

هززتُ رأسي شاكراً فبعثتْ بقُبلة في الهواء قائلة:

- يا لهوي ع الجمال قمر ياخواتي ولا اللي اسمه إيه تامر هجرس دا.

ضحكتُ فلمعتْ عيناها، فتركتُها غارقة في أحلامها تفعص علكتها بعجلات سيّارة وليست أسنان مُتجّهاً إلى غُرفة العناية المُركّزة....

أدخلني ربيع بعدما دسستُ لهُ عطاءهُ اليومي المُستحق...

الجو قاتم كقبر لم يُفتح مُنذُ سنين.

الإضاءة خافتة تأتي من لمبة حائط وحيدة مُرتعشة وحياة راقدة على سرير أبيض ترتدي ملابس المشفى سماويّة اللون ، وجنتها لا تزال آثار الدماء بها والكدمات تملأ وجهها الملائكي، جلستُ بجانبها ثم وضعتُ يدي على شعرها وأمسكتُ دمعاً كدتُ أن أزرفهُ ، ولكن صوت نَحيبي المكتوم فضحني.

- آدم.

أتى الاسم منها وكأنُّه يأتي من نهاية العالم.

ربّتُّ على كتِفها وأمسكتُ بيدها التي وضعوا لها المحلول بها ثم رمقتُ دقّات قلبها المضطربة في الجهاز المستشعر.

- قعّدني يا حبيبي.

كان وقع الكلمة ساحراً برغم الصوت المُجهد التي نطقتها بِه ، وضعتُ وسادة خلفها ثم أسندتُ ظهرها إليها.

جاهدتْ لتفتح عينيها فأتاها النور بعد ثوانٍ حارقاً حدقتيها ، فأخرجتُ الدفتر ثم كتبتُ.

- إيه حصل؟

سألتُها في قلق فأجابتْ في وهن.

- بفتح باب الشقة لقيت راجل معرفوش، هجم عليا وضربني.

وقاللي كدا المرة الأولى وسابني على الأرض لحد ما فوقت دلوقت.

فتساءلتُ مُتعجّباً.

- متأكدة إنك متعرفيهوش؟

هزّت رأسها إيجاباً.

كان ذلك حين قطعنا صوت الصياح من الخارج.

- انتو مش عارفين انا مين، أنا أحمد الألفي وزير الإعلام.

هدأ الصياح بغتة بعدها سمعتُ صوت الاعتذارات ينهال في الخارج.

كان ذلك حين عبر رجل في بدايات العقد السادس في بذلة سوداء الباب.

وجه خمري ورثته ابنتهُ حياة، وشارب أبيض خفيف يُعطيه وسامة واضحة.

كان ذلك حين هممتُ لأرحل فأمسكتْ حياة برسغي في قوّة غير مُلائمة لمثل هيئتها قائلة:

- متمشيش.

- اقعد يابني، انا مش هاخد من وقتها كتير عشان انا عارف انها مش عاوزة تشوفني أصلاً.

أتى صوت أبيها رزيناً مُنمّقاً فجلستُ أتصنّع الشرود.

- إيه حصلك يابنتي.

قالها أحمد الألفي لحياة مُتسائلاً.

- وقعتْ من على السلّم وأغمى عليا في الشقة والجيران جابوني هنا.

لماذا لم تقلْ لهُ الحقيقة !؟

- إنتي لازم تمشي من هنا أصلاً.

فأردفتْ حياة في ضيق.

- عشان المكان مش قد المستوى وعشان الناس الغلابة، مش كدا ؟ ريّح نفسك أنا مش همشي من هنا إلا على بيتي.

عندها احترق غضباً فقال:

- مليون مرّة بعتّلك موظفين من عندي يطلبوا منك تيجي تعيشي معايا وانتي اللي بترفضي، هتفضلي طول عُمرك عايزة تعيشي دور البطولة زي والدتك.

- اللي انت قتلتها، صح!؟

سعلتُ ثم ضغطتُ على يدها حتّى أُنبّهها أن ترحمُه فالأمر بالتأكيد شاق عليه هو أيضاً، ولكن هيهات لم ولن تسحب حياة جيوشها إلا إذا حققتْ انتصارها التام.

- قوللي كدا آخر مرة قولتلك يا بابا كانت إمتى !؟ روح يا سيادة الوزير لترابيزات القمار والعواهر بتوعك.

عندها همّ ليصفعها فأوقفتُ يدهُ في الهواء ممسكاً رسغه بقوّة وحدجتُه بنظرة احتقار ، جاهداً نَزَع يدهُ من يدي ومال على أُذني قائلاً بصوت منخفض:

- خللي بالك عليها، حياة مش لازم تعرف حقيقة والدتها.

ثم انحنى وقبّل وجنتها وهي تزفر ضيقاً ثم رحل.

- قالّك إيه ؟

عقّبت حياة بها عند خروجه فأجبتُها كاتباً

- كان بيقوللي أخلّي بالي عليكي .. يا حبيبتي.

ابتسمتْ حتى بدت أسنانُها فضحكتُ

أنا الآخر ثم أمسكتُ بيدها وسألتها.

- مقولتيلوش الحقيقة ليه؟

- كان هيبقي فيه تحقيق وكنت هاخد أجازة إجباري من شغلي وانا مش عايزة كدا.

هززتُ رأسي متفهّماً ثم أخرجتُ الهاتف من بنطالي، وقبل أن أشرع في رؤية الوقت أتت إنجي.

- إزيك يا حياة؟

قالتها إنجي وهي ترمُقني فأجابتْ حياة في ضعف.

- الحمدلله، شكراً إنك كلمتي آدم.

- إنتي مسئولة منُّه دلوقت، كان لازم اكلمُه وكويّس انُه مغيّرش رقمُه زي ما كل حاجة اتغيرت.

قالتها والغضب يكاد يحرق بنا غُرفة العناية المركّزة ، وأنا صامت كعادتي عندها وضعتْ إنجي باقة ورد بجوار حياة وذهبتْ غاضبة في عجاله.

فأردفتْ حياة ضاحكة بعد رحيل إنجي:

- ابقي فكّرني أول حاجة تعملها لما اخرُج من هنا إنك تغيّر رقمك.

ضحكتُ ثم كتبتُ لها.

- وانتي كمان ابقي افتكري تاخديني معاكي وانتي رايحة التحقيق عشان هساعدك زي ما طلبتي.

انكفأت على صدري وغرِقتْ فيه إلى أن نامت كطفلة مُنهكة من كثرة اللعب...

"2 "

حين عدتُ إلى المنزل وجدتُ الساعة قد أصبحتْ الخامسة مساءً، فلقد فضّلتُ الجلوس مع حياة وهي نائمة عن الرحيل، راقبتُ دقّات عقارب الساعة في يدي، كان ذلك حين تذكّرت مُهمّتي فدلفتُ من الباب مُهرولاً إلى الغرفة الأولى، أسفل الصندوق الزُجاجي كانت تقبع في صمت..

بندقية القنص الخاصة بي.

Les Baer . 308 semi auto

عيار ٣٠٨ وينشستر ، سوداء اللون ، مُرفق بها ماسورة من الإستانلس ، تتميّز بطول ١١٠٧ مللم ، ووزن 4.77 كجم

تحتوي خزانتها عشرين طلقة..

أخرجتُها من مرقدِها أسفل الصندوق الزُجاجي وبعثتُ فيها الروح عندما ألحقتُ الطلقات بها ثم أودعتها حقيبة يدويّة سوداء اللون متفحّصاً العنوان المكتوب خلف صورة يوسف طاحون...

التجمَع الخامس.

الساعة ٨:٣٣ مساءً.

فيلا رقم ٥.

" الخلاص".

الظلام حالك.

والأنفاس تكاد تكون معدودة لقلّتها.

يخلو المكان إلا من صوت صفير الهواء، على اللوحة الفضّية بجوار الباب الحديدي المهيب نُقِش بخط عريض:

" النقيب - يوسف طاحون".

حين ذلك تأكدتُ أنّهُ العقار الصحيح فتوجهتُ إلى نقطة عالية ملائمة للقنص توازي نافذة زجاجيّة للفيلّا.

انتظرتُ طويلاً أرمُقها قبل أن أضع البندقيّة على حافة المبني الموازي.

ثم ثبّتُ أطرافها وجعلتُ كل شيء مُستعدا للإطلاق، حتّى حواسّي نبّهتُها بسيجارة كنتُ قد أعدتُها في الطريق ، مرّتْ دقائق لم أُحصها قبل أن يظهر القتيل...

يقف وفي فمهِ غليوناً مُرتدّياً بذلة رماديّة اللون ناظراً من الزُجاج إلى باحة

الفيلّا الأماميّة عندها أطفأتُ سيجارتي وركّزتُ مكان الإطلاق عند القلب ثم سحبتُ الزِناد...

ولكن قبل وصول الطلقة إلى النافذة ضحك يوسف ضحكة غريبة لم أفهمها إلا بعد مرور بعض الوقت بعدها اخترقتْ الطلقة النافذة مُحطّمة الزُجاج ثم استقرّت عند قلبُه.

فهوى الجسد المفتول على الأرض بغتة كورقة شجر هزيلة في فصل الخريف فأودعتُ البندقيّة حقيبة اليد الخاصة بها مرّة أُخرى ثم وضعتُ قبّعة سوداء على رأسي لأُخفي بها ملامح وجهي ، مررتُ بخطوات جاهدتُ أن تكون واثقة لا تحمل رَيبا.

عندها تسارعتْ أنفاسي على غير المُعتاد،

وبعد عناء وجدتني في الشارع

فأوقفتُ عربة أُجرة لتقلّني إلى المنزل...

***

9:45 مساءً.

ارتميتُ على الأريكة ألفُظ أنفاسي.. نبضات قلبي تتسارع وكأن العدّاء الجامايكي " أوساين بولت " هو من يُحرّكها ، معدتي خاوية كبئر جف منه الماء والعرق يغمُرني ليغسل وجهي بالملح الحارق كمصارع في جولته الأخيرة ، يداي تمتزجان بالدماء مع انعدام التخضيب والسواد يتدلّى أسفل محجريّ كتدلّي عقرب ساعة مُهترئ..

وقفتُ أُحاول جاهداً ألّا أتعثّر ثم سلكتُ دربي إلى الثلاجة، وعند وصولي لها

أدرتُ مزلاجها وأخرجتُ من معدتها نصف دجاجة مشويّة وطبقا من الأرز كانا يقبعان بداخلها منذُ أيام ، افترستهُما وكأنهُما طعامي الأول والأخير في هذه الدُنيا.

ثم أرخيتُ جسدي على السرير الخشبي في الغرفة الثانية ، دقائق قليلة ثم غفوت...

***

الساعة 1:30

بعد منتصف الليل.

جرس الهاتف أفاقني من غياهب النوم...

تلقّيتُ المُكالمة وجفني لم يُفتحَ بعد.

- تعال جراند حالاً.

ميّزتُ الصوت القادم من سماعة الهاتف على أنهُ صوت سليم مدير أعمال سيف الزهّار، وقفت أترنّح كمن تجرّع مصنع تعتيق خمر كامل، ثم ذهبتُ إلى المرآة لأتبيّن ملامحي ...

وجهي غريب لم أميّزه ، شعري قصير ، وذقني خضراء اللون كأرض زراعيّة إثر الجز على غير عادتها.

نظرتُ في المرآة مُدققاً فوجدتُ من خلفي الموتور الفرنسي نائماً في سريري وعلى مؤخرتها ارتسمتْ تضاريس العالم أجمع عندها نزعتُ ملابسي فوجدتُ وجهها قد أصبح بموازاة وجهي...

ارتمتْ حياة بشفتيها على وجهي تُقبّلني وتبثُ سحرها في أخاديد فمي وعقلي

، جردتُها من ملابسها قانيّة اللون ثم أسندتُ رأسها إلى المرآة وضاجعتُها كمُحتل ذاق مرارة الحرمان لعامين كامِلَين، عندها بدأتْ تتأوّه فوضعتُ يدي على ظهرها مُخففاً واليد الأُخرى أسندتُها على المرآة ، الصوت يعلو والمنزل يهتز كمخروط بُركاني يشتعل ، ولكن بدلاً من الحمم البُركانية " البيضاء " وجدتُ الدماء تنسدل من مؤخرة رأسها.

نظرتُ في المرآة فوجدتني بداخل ماريّا أرماي داود...

نبضي توقّف وصُمّت أذُنايّ ، حاولتُ الصراخ و لم أجد في حنجرتي صَوتا يُذكر، حاولتُ الخروج منها ولم أستطع ، نظرتُ في المرآة فوجدتُ ملامحي تتغيّر لتُصبح ملامح العجوز دانيال أرماي داود، ضاجعتُها بجسده مرغماً.

كان ذلك حين رأيتني بعينيه في المرآة أقف على حافة الشُرفة بجوار السرير ، حاولتُ الخروج منها بجسد العجوز ولم أستطع مرّةً أُخرى عندها أغلقتُ حدقتيّ العجوز وحين فتحتهما كنتُ أهوي بجسدي من شرفة في الطابق الرابع

وانطفأت الإضاءة بغتة....

***

درجة الحرارة 12 C°

قُمت فزعاً...

أتت السيالات العصبيّة[2] بأمر من المخ إلى حدقتيّ أن افتحا ، كان ذلك حين أتتني الإضاءة الحارقة تُمزّق محجريّ فزفرتُ ضيقاً ثم وضحتْ الرؤية من بعد الاهتزاز فوجدتني مُسجىً على ظهري في أرض الغرفة والهاتف بجانبي مُضيئا ، أمسكتُه فوجدت رسالة كُتِب بها " تعال جراند حالاً " والساعة أصبحت السابعة والنصف مساءً ، وقفتُ ألتمس بعض الهواء من الشرفة.

---

2) هي الرسائل التي تنقلها الأعصاب من أعضاء الحس (أجهزة الاستقبال) إلى الجهازالعصبى المركزي ومن الجهاز المركزي إلى أعضاء الاستجابة

عندها تذكّرتُ المشهد فعدتُ إلى الوراء بضع خطوات والصداع ينخر في رأسي كما ينخر السوس العظام...

ذهبتُ إلى المرآة لأتأكد من ملامحي فوجدتني كما أنا.

شعري مازل طويلاً يصل إلى كتفي

ولحيتي كما هي لم ينقُصها شعرة ، شَعرتُ بالارتياح فاتّجهتُ إلى الحمام ، بعد الدُش الساخن ارتديتُ ملابسي ثم وضعت الدفتر في جيب سترتي الرماديّة، وعند هبوط المصعد بي إلى الطابق الأرضي سلكتُ دربي إلى الجحيم...

جراند متروبوليس

الساعة 8:40 مساءً

صعدتُ السلالم إلى الطابق الأول ثم عبرتُ بجوار النافورة الذهبية لأثينا فوجدتهُ كعادتهِ يجلس في آخر الرواق، ولكن هذه المرة كان يهوي بالسباب على سليم قائلاً.

- يعني إيه مفيش جثة يا بن الم... ؟ انتوا really بتستهبلوا.

أردف سليم بعدها في ثقة برغم الغضب الذي يعتلي وجهه.

- يا سيف باشا الحكومة ملقتهاش احنا هنلاقيها ازاي بس؟ وبعدين دا نقيب منّهُم فيهم يعني.

فعقّب سيف في ضيق.

- امشي من قدامي دلوقت وخلي الزفت الجرسون يبعتلي كاسين فيهم تلج وإزازة الويسكي بتاعتي.

كان ذلك حين أدار سيف رأسه للوراء فوجدني أقف كالمسمار في مكاني فأشار بيده إلي قائلاً.

- تعال يا آدم.

اقتربتُ منهُ ثم جلست على الكرسيّ المواجه له فعقّب وهو ينفُث دخان سيجارته في وجهي عمداً ويفتح بيدهِ الأُخرى صندوقا فضيا صغيرا.

- تشرب ؟

كان ذلك حين أخرج من الصندوق سيجارة كوبيّة ومد يدهُ بها نحوي

فالتقطُها ثم وضعتُها في فمي فأشعلها لي بقدّاحة ذهبيّة اللون.

- شوفت اللي حصل ؟

بدتْ علامات التساؤل على وجهي فأردف قائلاً:

- مستنّيك تجاوب، اه sorry نسيت، انت اخرس، المهم .. مش ضروري تتكلم لكن الضروري إنك تشوف.

رفع إصبعه في الهواء فأتى الحارس الشخصي مهرولاً يمسك بين يديه العريضتين جريدة أخبار الغد التي لم تُنشر بعد.

- اقرا كدا إيه مكتوب.

قالها سيف ثم وضع الجريدة أمامي فتمشيتُ على السطور بعيني فقرأتها في صمت ملحوظ...

• حادث غاشم يُصيب النقيب/ يوسف أحمد طاحون بطلق ناري في القلب ولكننا نشكر الله على أنّهُ يحمي رجال الوطن الأعزاء، فلقد كان النقيب يرتدي سُترة واقية لأنه كان مُتجهاً لحماية الوطن فلم تخترق الرصاصة الغادرة جسده، وهو الآن تحت المُلاحظة الطبيّة في المشفى الجوي التخصصي للعلاج من ارتجاج بسيط في المخ إثر ارتطامه بأرضيّة غُرفته ، داعين الله أن يرزقهُ الشفاء العاجل ، حمى الله مصر ورجالها البواسل.

بقلم الصحفي:- محمد أحمد داغر

كان ذلك حين أتى الجرسون ، شاب أبيض نحيف حليق اللحية والرأس في أواخر العقد الثاني وفي يدهِ اليُسرى زُجاجة ويسكي اسكتلاندي وكأسين على صحفة حديدية وضعها أمامنا ثم انصرف.

- العيب مش فيك يا آدم ، انت عملت شغلك على أتم وجه زي الجرسون دا بالظبط.

قالها سيف ثم سكب الويسكي في الكأس الرابض أمامي وأردف ناظراً إلي.

- بس جه واحد غشيم وعمل غلطة صغيرة أوي.

كان ذلك حين أطفأ سيجارتهُ في الكأس المملوء أمامي.

- فبوّظ كل حاجة ، زي ما انا عملت كدا بالظبط.

حينها اقترب مني مُمسكاً يدي وجذبني نحوه في قوّة فأحاطني الحُرّاس من الخلف ثم دفعني بيده إلى الجدار بغتة ووقف أمامي يُهندم ياقة قميصه الأبيض في ثقة ثم قال وأنفاسه تخونه بسبب التقدّم في العمر:

- إحنا دلوقت متفقين ان مفيش بينّا خلاف ، انت هتروح تنضّف وساختك، يا إمّا هيلاقوا سلاح الجريمة عندك في البيت بكرا الصبح، ما هو مش أي حد بيضرب بعيار ٣٠٨ وينشستر.

قالها ثم ضحك حتّى بدت سنّتهُ الذهبيّة.

بعدها أشار بإصبعه للحرّاس أن اتركوه ثم عاد جالساً على كُرسيه.

وفي مكر قال:

- حياة.

اضطربتْ ملامحي عند سماعي الاسم وهممتُ لأُكيّل لهُ اللكمات فأوقفني الحُرّاس في قوّة لم أستطع الخلاص منها.

- اهدى كدا ، سليم عارف مين اللي ضربها ، تقتل يوسف طاحون تعرف مين ضربها.

ثم أردف في ثقة.

- سيف الزهار مبيدّيش مِنَح لقاتل، بس دي المرة الأولى والأخيرة واعتبرها آخر

فرصة ليك ، بعدها انت عارف ممكن أعمل إيه.

تجرّعتُ كلماته كماء نار دافئ سلخ حلقي وعقلي وكل حواسي.

إنّهُ يُريد المُقايضة بجوهرتي.

مهما يستدعي الأمر سأُنفّذ ما يأمُرني به، حتّى أظفر بها.

فهززتُ رأسي متفهّماً ثم رَحلتُ أحاول تجميع كرامتي كبرواز هرسهُ القطار ذهاباً وإياباً...

القصر العيني.

غرفة العناية المُركّزة.

الساعة 9:10 مساءً.

كانت حياة تجلس على سريرها تُناولها إنجي بعض الأشياء يُطلق عليها مُسمّى طعام ، حين رأتني أخرجتْ حياة الملعقة من فمها وقامت راكضة نحوي ثم احتضنتني..

سعلتْ إنجي في حرج وغضب أيضاً ثم تركتنا قائلة.

- هجيلِك كمان شويّة.

- عاملة إيه انهاردا.

سألتُها كاتباً إيّاها في الدفتر فأجابت حياة في قلق وهي تضع يدها على وجهي.

- مالك، ليه متبهدل كدا، وإيه اللي في وشك دا؟

- وقعت من على السلم.

مسكينة حياة، يتم إدراجُها في مقايضة الشياطين وهي ملاك بأجنحة بيضاء.

لم أُرِد إخبارها الحقيقة، أو بالمعنى الأصدق لم أتذكّر، فـ " على حد علمي " أن حياة تُذهب عقلي أكثر من زجاجات

" تشيفاز ريغال " الخاصة بي.

- متأكد؟

قالتها وهي تنظُر في عيني فهززتُ رأسي إيجاباً ثم كتبتُ.

- عندي ميعاد هروح دلوقت واجيلك بعدين.

وضعتْ يديها على وجهي مرّة أُخرى تتحسس ملامحي فلامستُ يدها ثم نظرتُ في عينيها أن لا تقلقي يا حياة فمازلتِ في صندوق الشياطين معروضة للمُقايضة أم أنّهُ ينبغي عليكِ القلق والذُعر أيضاً ؟ بالطبع لم أقُل بعد كلمة حياة شيئاً من ذلك واكتفيتُ فقط بقبلة على رأسها ثم ذهبتُ تاركاً كل مُسببات الحياة في غُرفة العناية المُركّزة ورائي.

المستشفى الجوي التخصصي.

غُرفة المُلاحظة.

الساعة العاشرة والنصف مساءً.

" الإتمام".

ارتديتُ ملابس طبيب ووضعتُ نظّارة طبيّة على وجهي ثم اتجهتُ إلى غُرفة يوسف طاحون في منتصف رواق الطابق الثاني..

كنتُ قد أعدتُ وسيلة القتل الكيميائيّة الخاصة بي مُنذُ قليل وهي تتكوّن من مادة كريزوتينيب + مادة أموكسيسيلين = وفاة مُلائمة بسكتة قلبيّة.

تفحّصتُ الممر لأتأكد من عدم وجود أحد ثم أدرتُ المزلاج فانفتحتْ الغرفة، عندها دلفتُ من الباب أتبيّنُها...

التفتُ بعيني في كل الأرجاء ولم أجد يوسف طاحون.

فقررتُ الرحيل وإغلاق الباب ورائي.

كان ذلك حين غطّى وجهي غطاءٌ أسود بغتة وتلقّيتُ ضربة مدوّية على رأسي أفقدتني الوعي وأعتمتْ الرؤية عن عيني ...

سطح مركب طاحون.

مكان ما في النيل.

درجة الحرارة 5°C.

أنفاسي القليلة كوّنت سحابة بيضاء على الغطاء الأسود...

الدماء تسيل من وجنتيّ والزبدُ يتدلّى من فمي على رقبتي ، عيناي تريان ولا تريان ، أُجاهد لأبلع ريقي فيُعالجني بسكين حاد يشقُّ حلقي ، شعري يتدلّى على عينيّ والصداع سبب وجيه للانتحار ، ظلَّ العالم الأسود يهتزُّ في عينيّ إلى أن انقشع الظلام فجأة عندما رفع أحدهم الغطاء عن وجهي ... القمر مُكتمل ورؤيتي لم تكتمل بعد ، أحاول جاهداً تبيُّن التفاصيل ولا أستطيع.

عندها شَعرتُ بهزّة الماء تحت قدميّ فنظرتُ أمامي لأجد نهر النيل وأجدني على سطح مركب مكوّن من ثلاثة طوابق ، الدوار كاد يُسقطني في الماء قبل أن تُمسكني يد قويّة من عُضضي لتُنقذني من السقوط ، التفتُّ في دهر أتبيّن مُنقذي فوجدتُه يوسف طاحون...

حاولتُ استجداء نبضات قلبي أن تنتظم سبعين مرّة ولم تنتظم.

حاولتُ مواراة خوفي أربعين مرّة ولم يتوار.

حاولتُ الخلاص من قبضته عشر مرّات ولم أُفلت.

حاولتُ الاستيقاظ من الكابوس سالب عشرين مرّة ولم أستيقظ.

فلقد كُنت مُستيقظاً بالفعل..

الخوف يعتمر جسدي كاعتمار الجُندي قبعته العسكريّة أثناء القتال.

أنفاسي أُقسم أنها لا تُسمع.

أتخبّط كالمجذوب ولا أشعُر بشيء.

لقد دخلتُ عرين الأسد.

وأنا الآن أسهل فريسة على الإطلاق.

سيلتهمني ..

سيجتزُّ عنقي ناحراً رقبتي ...

ثم يمتص الدماء من جسدي ....

وحينها ستتبقّى عظامي .....

فسيشعُر ببعض الشفقة على الحيوانات البحرية ويُلقيني لها كلقمة سائغة، اللعنة ..

- عاجبني انت يا آدم ، تحفة فنيّة مفيش منها اتنين.

قالها طاحون فحاولتُ جاهداً استجداء أحبالي الصوتية أن تتحدّث كعازف يستجدي آلتهُ الخالية من الأوتار أن تعزف.

ولم أجد سوى الصمت.

تجرّعتُ الكلام وتقيّأت الصمت.

- أنا عارف مشكلتك.

ثم نظر في عيني بثقة قائلاً.

- بس انت اللي غبي مش عارف مشكلتي .. ظابط زيي لازم يشُك في نفسُه، اللي بنشوفه مش قليل دا الإبن بيقتل أبوه وبينام مع أمه .. دا مش كلام أفلام على فكرا دي الحقيقة فطبيعي من يوم ما انت قتلت بطرُس مينا وانا عارف ان الدور جاي عليّا ، حرجمت ولفّيت ودوّرت عملت اللي ميتعملش عشان أرضي سيف الزهار ومرضاش ، يمين في شمال لحد ما ربنا بعتك ليا نعمة، فاكر الحارس اللي انت ضربتُه أول يوم قابلت سيف الزهار؟

سألني ولم يُمهلني الوقت للإجابة ولكن الوقت كان كافياً للتذكُّر فأردف مُستكملاً:

- الحارس دا كان حبيب سليم ، تؤام روحه وانت كوّمتهوله على الأرض زي حتة الخرقة ، سليم زعل منك أوي وحب يرد لفوزي حقُّه .. ومِنَ الشذوذ ما قتل يا آدم يا صديقي .. سليم جه راكع يقول كل حاجة عليك، وازاي هتنفّذ وامتا، وكل همُّه ينتقم منك.

لذلك ضحكت قبل وصول الطلقة إلى قلبك أيُّها الخنزير.

- بس سليم غبي مش عارف انه بيسلمني جوهرة ، هو عايز يخلّص عليك بس بالعكس انت عجبتني ، أصل سليم دا آخره عسكري معفن عندُه الزُهري بعدها يعيشلُه كام يوم معفن لحد ما يموت .. ما هو مش كل اللي صدّرها هيلاقي حد يقدّرها برضه.

اللقيط يلعب على أوتاري المبتورة وأنا لا أقوي على تحريك الهواء حولي حتّى.

- أنا مش همّوتك انت جوهرة زي ما قولتلك ، انت بقا الفرخة اللي بتبيض دهب ، احنا هنعمل تعديل بسيط.

انت هتقتل سيف الزهّار وسيب سليم دا عليّا.

اضطربتْ ملامحي.

ثم هززتُ رأسي نفياً فمازلتُ بحاجة للاتفاق القائم بيني وبين الزهار.

فأنا أُريد أن أعرف من جعل حياة بهذه الهيئة الرثّة.

عندما رأى يوسف طاحون معالم الرفض في وجهي قدم مُسرعاً تجاهي وأمسكني بقوّة من رقبتي ثم أسند ظهري إلى حافة المركب قائلاً في غضب:

- أنا زي سيف الزهار مبحبّش يتقاللي لأ، ولو على حياة ..

أنا كمان عارف مين اللي ضربها زي ما انا عارف برضه مين قتل ابوك وامك ، تقتل سيف الزهار اقولك مين قتلهم.

ملامحي تبعثرت ..

ولكنّي لم أُصدّق كلمة واحدة من التي قالها فهززتُ رأسي بالنفي مرّةً أُخرى كان ذلك حين وجدتني أسقُط من طابق المركب الثالث في النيل إثر دفعة قويّة دفعني طاحون إيّاها ...

-

الهواء شديد.

والبرودة قارسة.

الاندفاع سلب الهواء من رئتيّ بسبب شدته.

أرى الماء على بُعد خطوات منّي.

أغلقتُ حدقتيّ وفتحتهُما مرّة أُخرى أملاً في أن أكون في حلم ما أو كابوس حتى،

ولكن وجدتني أسقُط بالفعل.

توقّف العالم حولي.

وبدأتْ ذرّات الهواء بالتكاثُف البطيء بجواري.

بدأتْ رئتاي في الصمت مثل لساني.

واندفع الأدرينالين بغتة في جسدي كاندفاع الجيوش في المعارك.

ففقدت وعيي قبل أن يرتطم جسدي بسطح الماء الدافئ.

السواد الحالك غمرني في قاع نهر النيل.

طلبتُ الاستغاثة صارخاً حتى انقطعت حنجرتي.

• تم إغلاق الأنظمة الحيويّة في هذا الجسد المُهترئ.

وكان هذا الشعور هو آخر ما شَعرتُ به قبل أن يسودني الظلام ويُغلّفني.

وهو شعور الموت...

-

-

أبحث في غياهب الموت ولا أجدني.

أقصد بابًا نُقِش عليه بالدماء:

(عزرائيل).

وأقرع الجرس.

فيأتي صوت أجش من خلف الباب.

- وقت وفاتك لم يحن بعد.

فأذهب مولّيا ظهري للفراغ.

أهيمُ في المساحات التي لا تحمل معنى .. فقط الفراغ حولي.

جسدي هزيل.

لحيتي طويلة وشعري أطول.

أجري .. ألهث .. أتعثّر فترتطم رأسي بالفراغ الموجود تحتى فأسقُط كمن يسقُط من السماء إلى الأرض.

فجأة سَمِعتُ صوت نحيب مكتوم عند وقوفي على أرضيّة الفراغ السوداء.

تتبعتُ مكان الصوت حتى وجدتُ باباً مُضيئاً ففتحتُه.

لأجد نفسي في غُرفة العناية المُركّزة..

***

جاهدتُ لأفتح عيني.

فأتى الطبيب فاحصاً إيّاها بكاشف طبي يصدُر عنهُ ضوء أصفر ساطع فأحرق حدقتيّ وبصري وعقلي.

دقائق قليلة ثم أتت الصورة المهزوزة،

حينها أحسستُ بيد حياة تُلامسُني

بتلقائيّة لا أعلم مصدرها، ناديتُ:

- حياة.

وللمرّة الأولى مُنذُ أن أصبحت أبكما أسمع صوتي من جديد.

" الدكتور قال انها صدمة نفسية ممكن تروح مع حدوث صدمة تانية أو متروحش خالص".

عندها أجابت حياة في ذهول:

- انت اتكلمت.. آه والله اتكلمت ، الحمد لله يارب.

قالتها ثم احتضنتي بقوّة فتألمتُ ولم أُظهر فتابعتُ الحديث كطفل تعلّم النطق حديثاً.

- إيه حصل؟

- فتحي البوّاب اللي عندك في العمارة، انت عارف انه بيشتغل مراكبي بالليل والصبح بيحرس البيت عندكم ، امبارح كان في النيل وقت ما انت وقعت نزل وراك وجابك هنا المستشفى على طول

- أشكريه يا حياة.

- حاضر بس ارتاح انت دلوقت.

فأردفتُ متسائلاً.

- فيه حد سأل عليا؟

أجابتْ وهي تنظر في عينيّ وتُتابع تحرُّكات شفتيّ في غنج.

- فيه حد اسمه سليم جه سأل عليك انهاردا الصبح.

لقد سأل علي ملك الموت الجديد الخاص بي.

بالتأكيد دوّن أسمي في دفاتر الغائبين،

وسيسعى ليُسجّلني في كشف الحاضرين (الأموات).

- بص، أنا مش هسألك انت مورّط نفسك في إيه ، كفاية فرحتى بإنك اتكلّمت، والمهم دلوقت انك تبقى كويس.

قالتها حياة ثم قبّلت جبيني فلامستُ بأناملي موضع الكدمة في جبينها.

كان ذلك حين دلفتْ إنجي من الباب الأزرق قائلة.

- إزيك يا بطل.

فأردفتْ حياة في سرور.

- آدم رجع يتكلّم يا إنجي.

تلقّت إنجي الكلمات في ذهول وحاولت مواراة فرحها ولم تستطع فقالت:

- طيب ألف مبروك ، كدا تعرف تساعدنا يا دوما ، يلا شد حيلك عشان محتاجينك معانا في القضيّة.

اكتفيتُ بالصمت و الابتسام الخفيف.

ومنذُ ذلك الوقت جلست حياة وإنجي تملآن الغرفة بكلمات الحديث من حولي. كان ذلك حين رأيتُ يوسف طاحون يرمُقني بابتسامتهُ الشيطانيّة من خلف زُجاج الغرفة الجانبي فأغلقتُ عيني المُشتعلة، وعندما فتحتهما مرّة أخرى لأُحاول تمييز ملامحه كان قد تبخّر كالزئبق....

في اليوم التالي.

لم أعُد أطيق الجلوس على سرير الأموات ذاك.

نزعتُ أسلاك الأجهزة الطبيّة عنّي،

ثم ارتديتُ ملابس وجدتُها في حقيبة مُلقاة بجانبي، وبينما كنتُ أعبر من باب الغرفة استوقفتني حياة قائلة في غضب.

- أنت رايح فين؟

فأردفتُ في غضب أكثر من غضبها:

- همشي من هنا .. عايزه تيجي معايا تعالي مش عايزه اقعدي انتي.

أمسكتْ يدي واقتربتْ بجسدها منّي ثم قالتْ في حنوّ وهي تمسح بيدها الأُخرى الدموع من عيني:

- مليش مكان غيرك ، هاجي معاك وأمري لله...

المنزل.

الساعة الثانية ظهراً.

الشمس ساطعة تحرق الوجوه والقلوب رغم برودة فصل الشتاء.

المُكيّف الخامس والعشريني بجواري يُكيّف الهواء بداخلي إلى الهواء الساخن وخارجي إلى الهواء البارد...

كان قد حطّم فتحي حارس العقار قفل باب الشقة في غيابي لعدم وجود مفتاح وقام بتغيير الأقفال ثم أعطاني المفاتيح عند مروري من مدخل البيت.

المنزل رث كحجر أساس تم تدميره.

- إيه دا !

عقّبتْ بها حياة عند دخولنا الصالة مُستنكرة الوضع المُشين للمنزل.

حكمة ٧ :- " النساء هن النساء ، فلا تُجهد نفسك في محاولات التغيير".

- نص ساعة وهجيلك.

قالتها حياة ثم اختفتْ من أمامي في لمح البصر.

- بعد ساعة -

صوت الطرقات أفاقني من الشرود فذهبتُ لأفتح الباب، عندها وجدتُ حياة

تقف وهي تُمسك في يدها العديد من الأكياس البلاستيكيّة فساعدتُها في حملها، دقائق قليلة وبدأت بتنظيف الشقة فطلبتُ منها أن لا تمس الصندوق الزُجاجي فوافقت في تعجُّب ولم تقُل شيئاً.

بعد التنظيف جلسنا نأكُل ونُراقب بعضنا البعض في صمت ثم رحلتْ حياة إلى عملها وتركتني أهيم في بحرٍ من الدماء والظلُمات ...

جراند متروبوليس.

الطابق الأول.

الساعة التاسعة مساءً.

درجة الحرارة 8°C.

المكان هو المكان..

والناس هم الناس..

وأنا لستُ أنا، فالآن أستطيع التحدُّث ..

الفريق الثلاثي توسّط المرقص وبدأوا بعزف " c'est pour toi ".

للمُغنيّة الفرنسية " Celine Dion ".

فذهبتُ إلى المرقص ثم أشرتُ لطارق " عازف البان فلوت " أن يطلب من صاحبهِ آلة الكمان، بالفعل لحظات ووجدتُها في يدي عندها بدأتُ في عزف المقطوعة مع الفريق، لحظات وانخرطتُ في العزف..

حبّات العرق غمرت قميصي أسود اللون .. النشوة تعتلي أضلُعي وقلبي رغم الألم المُلحق بها ، والرغبة في افتراس الحُزن تنتشر بخلاياي.

قطع حبل نشوتي قدوم تامر الجرسون،

همس في أُذني قائلاً.

- سيف باشا عايزك في الدور التالت.

لم أُعرهُ اهتماماً يُذكر.

انتظرتُ حتى أنهيتُ عزفي.

فانهال التصفيق علي كسقوط جبل على رجُل واحد.

حينها ذهبتُ إلى الطابق الثالث...

على كرسي المسقى وجدتُه ، يرتدي بذلة سوداء متفحّمة ويفعص السجائر في المطفأة أمامه في غضب، ذهبتُ لأجلس بمحازاته قائلاً في سُخف.

- أزيك يا سيف.

رد بدون النظر إلي.

- ما هو دا اللي ناقص، واحد يموت والتاني يتكلّم.

تعجّبت ولم أُعقّب فأردف كلامه وشعرُه ينسدل على جبينه وعيناه تحملان من الإرهاق أطنانا.

- سليم لقوه مشنوق في شقته، وكل الأدلّة بتقول انه انتحر، بس انا مش مصدق.

قالها ثم أمسك بياقة قميصي في وهن قائلا في نبرة حاول أن تكون مُشتعلة الغضب.

- انت اللي وصلتنا لكل العك دا.

على غير المُعتاد لا توجد حراسة، فأبعدتُه عنّي دون أي مجهود يُذكر، ثم أمسكتُ رسغه بقوّة وقلتُ بنبرة حادّة:

- مين قتل ابويا وامي يا زهار ؟

تبعثرتْ ملامحهُ وسقط من بين يديّ ثم قام يترنّح وجلس على كرسيه مرّة أُخرى قائلاً في إهمال:

- معرفش.

تركتُه في بحر هذيانُه يسبح حتّى لا أُحطّم رأسُه.

وسلكتُ دربي إلى الطابق الأوّل...

***

حين دلفتُ إلى الطابق الأول كان طارق يعزف مقطوعة " مونمار " التي أضفت السحر على المكان بجوار برد الشتاء.

هززتُ لهُ رأسي عندما رآني ثم جلست أنتظرُه، دقائق قليلة حتى أنهى عزفه وأتى ليجلس بجواري.

- إيه يا بومبو.

قالها ضاحكاً فقلتُ.

- طارق باشا.

- ياااه يا آدم، إنت لسّا فاكر!؟

- ودي حاجة تتنسي يا حضرة الظابط.

- خلاص بقا لا ظابط ولا غيرُه، مبقاش فيه غير حتة الخُردة دي، منها وإليها نعود.

قالها مُشيراً بيدهِ إلى آلة البان فلوت ثم أخرج علبة السجائر من جيبه وناولني سيجارة فأخرجتُ قداحتي لأشعلها قائلاً:

- عايزك في خدمة.

- الراوي يؤمر.

- صحفي اسمه محمد أحمد داغر ، عايز كل حاجة عنه.

- أسبوع وكله يبقى عندك، عشان بقالي كتير مروحتش المُديريّة من ساعة ما سيبتها، بس معلومة رقم واحد دا ابن وزير الإعلام السابق أحمد داغر.

- خد وقتك.

- مبروك الصوت ع الحنجرة يا بومبو، عرفت من إنجي إنك هترجع تحقق تاني، ما تسيبك م الجو دا وتيجي جمبي هنا تعزف ، الأجانب هنا تُحف فنيّة.

اكتفيتُ بالضحك وقمت فحيّاني ثم عاد إلى المرقص يُحيي قلوب الحاضرين بآلتُه...

اليوم التالي.

ميدان التحرير.

الساعة السادسة والنصف مساءً.

المكان كما هو، ولكن خفّت وطأة الاحتقان السائد نوعاً ما، فلقد مرّ وقت طويل على القضيّة دون إيجاد أيّة أجوبة تُذكر، فاعتبروها قضيّة " مؤيّدة ضد مجهول "، ولكن يستمر التحقيق كنوع من الشكليّات...

عندما دلفتُ إلى دائرة التحقيق حيّاني البعض مِمّن تذكّرني بكلام مُبهم ، اكتفيتُ بالابتسام وتابعتُ سيري أنظُر لجميع العلامات التي وضعها رجال الطب الشرعي من خلف نظّارتي الشمسية حتّى وصلت لإنجي فقالت كمن طلقّى طوق نجاة وهو يغرق ويملك نفس واحد أخير:

- بطرُس جرجس مينا ٥٠ سنة ، بيشتغل كل حاجة وأي حاجة " غلط ".

ثم بدأتْ في سرد تفاصيل الحادث وتقارير الطب الشرعي ورجال البحث الجنائي وأن المعلومة الوحيدة عن القاتل هي أنّهُ يستخدم عيار ناري ٣٠٨ وينشستر لوجود فارغ الطلقة على السطح المقابل للمنزل.

- عايز اشوف الشقة.

قلتُها باتراً حديثها غير المُجدي على الإطلاق.

فقادتني إلى شقّة في الطابق الثاني .. باهظة الأثاث ولكن مقلوبة رأساً على عقب كأمعاء كلب مُلقاة على الطريق بعد ذبحه، فرجال الطب الشرعي يُبعثرون مثلما يُنظّمون.

تفحّصتُ الشقة وإنجي تتبعني.

تمشّينا فيها حتى وصلنا إلى حائط أزرق نُقِشَ عليه حرف "m" وفوقه شكل سكّين.

دققتُ النظر وبعد ثوانٍ قليلة قلتُ في ثقة

- القاتل بيرسم الأشكال دي بإيدُه الشمال لكن هو مش أعسر، هو بيعمل كدا كنوع من التضليل ، عايزك تشوفي سجلّات المُسجّلين اللي بيستخدموا إيديهم اليمين وبيقتلوا بقناصة أو بسلاح عادي حتّى، شرط يكون من مسافات بعيدة.

هزّت إنجي رأسها في تفهُّم عند سماعها جُملتي ثم أعطتْ الأمر بالتنفيذ لرجال البحث الجنائي، كان ذلك حين عبرت حياة من باب الشقة، ابتسمتْ عندما رأتني فابتسمتُ لها ولكن وجدتُ خلفها يوسف طاحون يقف ضاحكاً فاختفت ابتسامتي ثم هرولتُ إلى الباب أنظُر حولي فلم أجد لهُ أثر...

قفزتُ السلالم كمن يهرب من الشيطان ثم اتجهتُ إلى الشارع فغلّفني الفراغ ولم أجد لهُ أثرا مرّة أُخرى ولكن سمعتُ صوت محرك سيارة يبدأ في التحرُّك على يساري نظرتُ لأتبيّن فوجدت عربة سوداء تركُض عداداتُها، ثوانٍ واختفت من أمامي مُنطلقة إلى وجهة لا أعلمُها فعدتُ إلى شقّة بطرُس مينا.

وسحبتُ حياة من وسط الجموع عند دخولي من الباب.

- عايز امشي من هنا.

قلتُها في ضيق فأخذتْ حقيبتها ثم اتجهنا إلى ضفاف نهر النيل...

النيل.

الساعة السابعة والنصف مساءً.

ارتمينا أنا وحياة على ظهر مركب صغير يسبح في النيل.

- سوق لحد ما الدنيا تخلص يا عم فتحي .. دا إن خلصت أصلاً.

قلتُها في يأس لرجُل أسود هزيل في العقد السادس يرتدي جلبابا رماديا ثم عدتُ إلى حياة التي ملأتها التساؤلات بسبب غضبي.

- فيك إيه؟

قالتها وهي مقطبة جبينها في تساؤل.

فأردفتُ:

- أنا نفسي معرفش فيا إيه ، بقالي سنتين مش عارف إيه بيحصل، بعيش اه واليوم بيعدّي، لكن مش عارف بقا دا الوهم اللي حكيتلك عنه ولا انا اللي اتغيرت فعلاً.

فقالتْ في يأس.

- يبقي انا اللي مش عارفة أسعدك.

- المشكلة فيّا ، بقيت حاسس اني شخص غريب ، تفاصيل كتير بتّوه وحاجات وحكايات بحبها بقيت دلوقت بكرهها.

فتساءلتْ:

- إنجي السبب؟

- أبويا وأمي.

بهتت ملامحها ثم ابتسمت ابتسامة صفراء.

ووضعت رأسي على كتِفها فاستكملتُ ناظراً للنجوم:

- عرفت انهم أتقتلوا، مش فاكر مين قالي بس فاكر ان انا عارف دا ، كمان بشوف كوابيس غريبة ، حتى انتي بقيتي جزء من الكوابيس دي.

- للدرجادي مش عارف تعيش!

- قصدك مش عارف أموت.

دمعت عيناها ثم قبّلتْ جبيني كاتمة صوت نحيبها، ولكن انسابت دمعة ساخنة من عينيها على وجنتي فأحسستُ بها.

- بتعيطي ليه؟

- أتنين أموات بيطبطبوا على بعض.

- بس دي حاجة تضحّك متعيّطش.

قلتُها ضاحكاً ثم احتضنتُها قائلاً:

- أنا بحبك ، سامحيني على زعلي وعلى اللي ممكن تعرفيه عني.

- بحبك ومسمحاك من غير ما أعرفه.

ساد الصمت سطح النيل وقاعه والمركب بغتة.

وظلّ الصمت سيّد الموقف حتى انتهاء العالم...

عند انتهاء النيل أو كما ظننت...

أعادنا فتحي إلى اليابسة مرّة أُخرى.

اليابسة التي تجمع الوحوش والشياطين مُتجسدين في هيئة بشر.

اليابسة التي تقتلني.

تفترس روحي بالبشر عديمي الرحمة والشعور.

أسكتُّ عقلي بعد مُعاناة.

ثم اتجهتُ مع حياة إلى منزلها في الزمالك وعندما وصلنا أمام الباب الحديدي للعقار ودّعتُها ثم سلكتُ طريق عودتي إلى المنزل.

عندما أصبحتُ أمام الباب الخشبي وضعتُ المِفتاح وأدرتُه فانفتح الباب

الشقة مُظلمة كسماء بلا قمر.

تحسستُ زر الكهرباء فباغتتني ضربة على رأسي أفقدتني الوعي....

***

الكلاب تركُض ورائي...

أنفاسي تتسارع....

وتقفز النبضات بقلبي إلى أعلى رأسي. حينها نظرتُ ورائي مُستمرّاً في الركض فوجدتُ الكلاب تتحوّل إلى هيئة بشريّة.

عندها توقّفت مولّياً ظهري الفراغ فتوقّفوا.

أحسستُ بوجود شيء في يدي فنظرت إلى الأسفل لأجد سكّين نُقِشَ على يدها حرف "A".

حينها رأيتُ الدماء تقترب من حذائي

فرفعتُ رأسي أتبيّن فلم أجد أحدا.

نظرتُ إلى يدي فوجدتها فارغة.

فرفعتُ رأسي مرّة أُخرى لأجد حياة تقف أمامي مُغطاة بالدماء، كان ذلك حين اقتربت مني في سرعة وأودعتْ السكين قلبي.

****

طنين التصفيق اقتلع عقلي.

- برافووو.

فتحتُ حدقتيّ فوجدتني مُقيّدا على المكتب، التفاصيل أتت بعد لحظات فتبيّنت صاحب الصوت.

- ممثل هايل.

قالها يوسف طاحون مُستكملاً التصفيق.

- يا حيوان.

قلتُها محاولاً الخلاص من سجن المكتب فخارت قواي فاستكملتُ في وهن:

- قتلت سليم عشان انفذ اللي انت عايزه، مش كدا؟

سحب كُرسيّا من الصالة ثم عاد ووضعه بمحازاتي ثم جلس عليه قائلاً:

- بس زي ما انا غيّرت اتفاقي مع سليم غيّرت أتفاقي معاك.

- ؟

- هقولك مين قتل الوالد والوالدة، ودا هيجاوب على حاجات كتير من الفزع اللي كنت بتحلم بيه وانت مغمى عليك.

- أنت ازاي بتشوف اللي انا شايفه؟

قلتُها مُتعجّباً فأجابني.

- أنا مشوفتش ، بس المتهمين بعد التعذيب بيخطرفوا بنفس طريقتك دي.

- مين قتل أبويا وأمي؟

- أنت.

أُقسم أن فكّيّ أنقسما إلى نصفين من التعجُّب.

والصواعق ارتطمتْ بعقلي من كل حدبٍ و صوب.

- يابن الكلب عايز تخليني اتجنن!

قلتُها بكل ما أملُك في حنجرتي من قوّة فاقترب منّي وأمسك بعضدي في قوّة كاد أن يكسر بها يدي ثم أخرج الهاتف من جيب بنطاله وتابع الحديث:

- انت هتيجي على اللي هيفهّمك وترفُص النعمة؟

لم أُعقّب لعدم إيجاد أحبالي الصوتية من الضعف فتابع في ثقة قائلاً:

- فيتورا.

استجديتُ صوتي فنطق بعد المُعاناة قائلاً:

- نعم؟

- نبات مُخدّر ، اتحطّلك في الأكل ساعة ما كُنت بتشتغل مع بطرُس مينا عشان يجربوه عليك، النبات دا بيخليك تنفّذ الأوامر من غير اعتراض زي عساكر الأمن المركزي كدا.

من هول الصدمة نطقتُ باستفزاز:

- وإيه يثبتلي إنك مش بتلعب بعقلي؟

- تفتكر بخيالك المريض انا إيه اللي خلّاني اشنُق سليم؟

قالها مُتسائلاً فلم أُعقّب فأردف.

- سليم كان مره فاتحة رجلها فطبيعي يبقي ابن وسخه برضه ، ساومني انه ميدنيش المكالمة اللي بتثبت ان سيف الزهار أمر بطرُس مينا يحطلك النبات في الأكل إلا لما أسفرُه هو والمره التانية بتاعتُه بلد بتدعم الشواذ، فعرفت انه حلانجي ، اتفقت معاه اني جبتلُه التأشيرة وجايلُه البيت عشان آخد المكالمة، روحت وخلّصت والباقي انت عارفه.

- أنت إيه .. شيطان!

قلتُها باشمئزاز فقال بثقة زائدة مصحوبة بسخريّة.

- بالعكس دا احنا الملايكة وهما الشياطين ، إحنا اللي بنّضّف وساختهم، ودلوقت بنّضّف وساختك، نبقي ملايكة ولا مش ملايكة ؟ لو على الأجنحة فممكن نكون من نوع ملوش جناحات مثلاً!

حكمة ٨ :- " من قال أنا أسوأ الناس فهو أفضلهُم، ومن قال أنا أفضل الناس فهو الشيطان بعينه".

- دا كله عشان خايف من سيف الزهار يقتلك؟

- تبقى عبيط ، الموضوع أكبر من سيف الزهار بكتير، سيف دا حلقة وصل، بس رقبتي ورقبتك في إيدُه دلوقت مفيش حلّ تاني.

- بس أنا كدا مش هعرف مين ضرب حياة.

- مكسب أكبر يكون أحسن ، أبوك وأمك لازم يرتاحوا في تُربتهم ، أه انت اللي قتلت بس انت مجرد عروسة ماريونيت هما اللي حرّكوك وضغطوا الزناد مش انت.

- عايز اسمع المكالمة.

قلتُها محدّجاً يوسف طاحون بنظرة شك فأضاء شاشة هاتفه ، ثوانٍ وبدأ الصوت في القدوم من سماعة الهاتف:

- بطرُس.

ميّزتُ الصوت الذي كان لسيف الزهار، فتابع صوت آخر الرد:

- سيف باشا أوامر معاليك.

- إنهاردا تجرّب نبات فيتورا على الواد الجديد وخليه يخلّص على أبوه وأمه مش عايزين ديول ورانا.

- أوامر معاليك يا باشا.

انقطت المُكالمة وانقطع لساني وقلبي معها.

كلام الشيطان صحيح...

- اجهز بقا يا بطل عشان التنفيذ قرّب.

قالها يوسف طاحون وأخرج من جيب بنطاله مطواة فك بها قيدي ثم تركني وأخذ رَوحي معه.

أخذ فتات الأنفُس المُتبقّي لي.

وأخذ أرواحي القِطَطيّة السبعة.

وتركني وحيداً في الجحيم..

في الأيام التالية.

• سيف الزهار وزيراً للعدل بقرار من رئاسة الجمهوريّة.

• الوزير سيف الزهار يحلف اليمين الدستوري أمام كلًا من السيد رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء.

• لقاء صحفي لوزير العدل يُفجّر به قنبلة قائلاً " سليم مدير أعمالي اتقتل منتحرش ومش ههدا إلا لما اقدم المجرم الحقيقي للعدالة".

• حادث مروّع بالطريق العام يذهب ضحيته فوزي السيد رحيم، حارس أمني في منتصف العقد الثالث.

• حياة أحمد الألفي ابنة وزير الإعلام تنشُر مقالاً من ضمن سلسلة مقالات تزعُم أن بنهايتها ستنكشف هويّة القاتل المجهول الذي اجتهدت الشرطة كثيراً في البحث عنهُ.

• الوزير سيف الزهار في تصريح لمجلّة التحرير " بيقتلوا رجّالتي عشان خايفين منّي".

• وزير الداخلية:- قضيّة مقتل الشريفين سليم وفوزي أصبحت على عاتق كل رجل شرطة.

• المشتبه به الأول في قضية القتل هو النقيب السابق يوسف طاحون كما قال الوزير سيف الزهّار.

- **اختفاء يوسف طاحون ووضعُه على قوائم الممنوعين من السفر.**
- **العثور على جثة تحمل أوصاف يوسف طاحون على طريق الواحات.**
- **الجثة تعود ليوسف طاحون، وتم إغلاق قضيّة القتل وقيدها ضده.**
- **جلس آدم طوال الآونة الأخيرة في منزل طارق دون أن يعلم أي شيء خارج نطاق الشقة ..**

منزل طارق.

الساعة الرابعة مساءً.

المنزل قطعة من النعيم...

فوالد طارق هو المحاسب الكبير غريب الدالي ، الأثاث الذهبي يحتل الأرضيّة ويتوسّط الصالة مسبحا دائري الشكل على يمينه سلالم تقود إلى الطابق الثاني حيثُ وقفتُ أتأمّل النيل من النافذة الزجاجيّة وطارق من ورائي يعزف على البيانو مقطوعة " Moonlight " لبيتهوفن ، العزف شقق جدران البيت وأنبت الورد منها بسبب عذوبته، كان ذلك حين أصبح العزف نشاذاً بغتة فصحتُ قائلاً:

- بس ياعم الله يكرمك.

ضحك طارق ثم قام من مرقدهِ وقدِم تجاهي ثم أعطاني سيجارة وقال وهو ينفُث دخان خاصته من النافذة:

- كدا احنا معانا كل حاجة عن محمد أحمد داغر.

- مصمم تكمّل معايا؟

سألتُه مُتعجّباً فقال في ثقته المُعتادة:

- زي ما بدأناها سوا ننهيها سوا ، كدا احنا معانا كارت ضد طاحون، بس لازم سيف يتشال من الصورة الأول.

استمعتُ إلى حديثه وأنا أنظر للنيل ثم قلتُ في شرود:

- بس انا لسا برضه مفهمتش مين اللي في الكوابيس دول.

هزّ رأسه مُستنكراً ثم قال مُغيّراً دفّة الحوار:

- خد بالك سيف دلوقت وزير العدل، قتله هيكون صعب شويّة.

- أمال انت موجود ليه؟

قلتُها ضاحكاً فضحك بقوّة حتى سعل، كان ذلك حين رن جرس المنزل فاتجه إلى الطابق الأول، ثوانٍ قليلة وسمِعتُ صوت نعل يَهزُّ الأرض كهزّات الزلازل من ورائي فالتفتُ لأجد حياة تقف في بلوزة سوداء وعلى كتِفيها فورير أسود اللون بجانب بنطال رمادي يُزيّن خصرا من الكشبان الذهبيّة.

- أنا كلمتها عشان لقيتك محتاج حد يكون جمبك ، مش ضروري تقوللي بس مش ضروري اسكت ومكلمهاش برضه.

قالها طارق فنظرتُ له نظرة ضيق ثوانٍ وكان قد اختفى من أمامي.

- مش عايز تشوفني؟

قالتها حياة وهي تقترب من مكان وقوفي أمام النافذة، فنظرتُ مشيراً إلى انعكاسي الظاهر على الزجاج أمامي ثم قلت في يأس:

- مش عايز أشوفني.

- أنا مبقتش عارفة انت مين ، تقدر تقوللي كدا كنت فين من أسبوع، وليه كل مرة بشوفك بتبقى متعوّر تعويرة جديدة؟

- قولتلك هتتعبي معايا.

قلتُها ثم أشحتُ بنظري بعيداً عن مرمى وقوفها فاقتربتْ مُلامسة وجهي بيديها ثم قالت:

- يا سيدي اتعبني ، أنا معترضتش يا آدم ، بس انت كدا بتتعبني بسكوتك وانا مش عارفة اعمل إيه عشان أساعدك.

حكمة ٩ :- " ستخسر معظم علاقاتك إذا كُنت من الصامتين ، مثلي".

- وصلتوا لإيه في التحقيق؟

قلتُها مُغيّراً دفة الحوار فقالتْ:

- هو انت متعرفش ان النقيب السابق اللي اسمه يوسف طاحون دا هو القاتل؟ ولقوا جثتُه على طريق الواحات والقضية اتقفلت و ...

استمرّتْ حياة في حديثها ولكن الشرود كان قد ملأ حيّز عقلي وأغرقه.

لقد مات طاحون، والآن قد انتهت اللعبة، لقد غادر السرطان الجسد في سلام، وترك السوس العظام دون أن ينخرها.

- سرحت فين! وبتغيّر الموضوع ليه أصلاً؟

قالتها حياة فأفاقتني من شرودي.

- طاااارق.

قلتُها صائحاً فأتى كأنه توأم سيامي لم يُغادر مُنذُ البداية وظل قابعاً ينتظر تلبية نداء الواجب.

- أوامرك يا بومبو.

- for elise.

قلتُها ففهم قصدي، ثوانٍ واعتلى البيانو وبدأ في عزف مقطوعة بيتهوفن المُفضلة لي.

فأخذتُ حياة بجانب البيانو وبدأنا الرقص.

بعد ثوانٍ من الرقص وجدتنا على شاطئ البحر بنفس هيئتنا.

- ماما عليّا كان نفسها تروح راس شيطان أول ما نرجع من السفر.

قالتها حياة والدمع ينسكب من عينيها فقلتُ مخففاً.

- الله يرحمها، بكرا كلنا نروحلها.

حينها لكمتني حياة في صدري.

- إنت يا بني.

كان الصوت لطارق الذي أفاقني من شرودي لأجد أنني مازلتُ أقف أمام النافذة والتبغ المُشتعل قد أحرق إصبعي، وحياة لم تكن في المنزل من الأساس.

- مقولتليش هنّفذ إمتى؟

قالها طارق فقلتُ وأنا أبحث بعيني في الشقة عن حياة التي داعبت خيالي ثم اختفتْ بغتة.

- ليلة راس السنة.

***

في الأيام التالية عدتُ إلى منزلي بعدما أخبرني طارق أن يوسف طاحون قد مات بالفعل وأن القضيّة أُغلقت بموته وأنّهُ لم يتبقّ لنا سوى باب وحيد قد يؤدي إلى الجحيم، وهو سيف الزهار ولابد من جعله بابًا موصداً لدرء الشُبهات وسد الثغرات، حينها انتزعني صوت رنين الهاتف من التفكير ، أضاءت الشاشة باسم حياة.

- أنا جيّالك حالاً .. كنت قايلة لعم فتحي يكلمني أول ما تروّح وهو لسا مكلمني وقاللي إنه شافك طالع البيت.

- إنتي فين وأنا أجيلك؟

- في الجريدة ، عارف العنوان؟

- نص ساعة واكون عندك.

افتقدتُ زُجاجات تشيفاز ريغال الخاصة بي طوال الآونة الأخيرة، فطارق منعني منها حتى يظل عقلي مُنتبهاً طوال فترة غيابي تحسُّباً لحدوث شيء يحتاج التركيز.

فذهبتُ إلى الغرفة وعند وصولي أمام الثلاجة أدرتُ مزلاجها، وعندما أتاني وميض الإنارة بداخلها أخرجتُ الزُجاجة القابعة في المنتصف تُناديني بشغف أنثى أرمانيّة حمراء الشعر، بعدها تجردتُ من ملابسي وذهبتُ إلى الحمام...

دقائق قليلة كانت كافية لتجرُّع نصف الزجاجة وارتداء ملابس تناسب جسدا فقد من الوزن ٢ كيلوجرام.

حين أصبحتُ في الشارع أشعل ضوء الشمس حدقتيّ، فلم أعتد أن أُحب الصباح يوماً فوضعتُ نظارتي الشمسيّة على عينيّ وقصدتُ وجهتي التالية.

ألتمس بعض الهواء المُنسحب من رئتيّ وجزء صغير من عقلي المُغيّب إثر مُعاقرة الخمر..

جريدة التحرير.

الطابق الثاني - قسم الحوادث.

الساعة الثالثة والنصف مساءً.

أوراق الطباعة تملأ الساحة العتيقة ، موظفون كثُر مُنهمكون في أعمالهم وعزرائيل يترأس إدارة قسم الحوادث واقفاً بخياله الأسود في منتصف الصالة على كرسي مُحرّكاً أجنحته فيقتلع أسقُف الأرواح المدوّنة في الصحُف..

من بين الجموع المُتناثرة في جميع الأرجاء جلستْ حياة على مكتب في آخر الرواق، فذهبتُ إليها دون أن أُجيب على أسئلة مثل:

- إنت جاي لمين يا باشا؟

حين وصلتُ أمامها كانت مشغولة في قراءة شيء ما في يدِها فنزعتُ نظارتي الشمسية ثم طرقتُ بإصبعي على المكتب قائلاً:

- حساب الشاي معاليكي.

رفعتْ رأسها فرأتني، عندها أطلقت ضحكة هزّت أركان قلبي الأربعة والمكتب والسماء والأرض.

- تعال اقعد جمبي.

قالتها ثم جلبتْ كرسيا من مكتب مجاور لمكتبها فأخذتُه منها وجعلتُه ملاصقاً لكُرسيها، وعندما جلستْ أطلتُ النظر في عينيها دون أن أقول كلمة واحدة.

وبعد الصمت تحدثتُ قائلاً:

- قبل ما تقولي أي حاجة ، عارف إني مهمل وبغيب عنك مدّة بس المرة دي كنت محتاج ابقى لوحدي عشان اعرف افكّر.

- المهم انك معايا دلوقت.

قالتها ثم وضعت يدها اليسرى على راحة يدي اليُمنى، حينها ضربتها الصاعقة فتذكّرتْ.

- صحيح، يوم ما قولتلي على المركب ان والدك ووالدتك اتقتلوا ، تاني يوم طلبت ملف القضية بتاعتهم اكتشفت انهم لقوا في تحليل دمّهُم مادة كريزوتينيب ومادة أموكسيسلين.

- " مين قتل ابويا وامي؟ "

- " أنت"

تذكّرتُ كلام يوسف طاحون ولكن صوت مُتابعة حياة الحديث أفاقني.

- بعدها القضيّة اتقفلت ، كان سهل يقولوا انهم عشان بياخدوا أدوية فيها المواد دي فظهرت في تحليل دمّهُم مش دا الغريب ، الغريب هنا إن تاني حالة قتل عملها يوسف طاحون بعدها بشهر كانت أحمد داود، ودا الصحفي اللي كان بيحقق في الجريمة، أحمد اتسجن يومين في قسم روض الفرج اللي كان يوسف طاحون نقيب فيه بعدها خرج وبعد يومين لقوه ميت في شقته بسكتة قلبية ودي تحاليل الطب الشرعي لجُثته اقراها كدا.

قالتها ثم أعطتني ورقة زرقاء اللون فقرأتُها.

• إنّهُ في يوم الأربعاء الموافق ١٥ من شهر يونية لسنة ٢٠١٥ بشأن قضيّة جنايات القاهرة رقم ٢٤٠٧ قد تبيّن الآتي:- بعد مُعاينة جُثمان الصحفي أحمد السيد داود رضا عثمان قد وجدنا نحنُ الطب الشرعي التابع لدائرة قسم روض الفرج أن عينة الدماء تحمل كلاً من مادة كريزوتنيب ومادة أموكسيسلين، وبالتحرّيات وجدنا أن الصحفي كان يتعاطى أدوية علاجيّة تحمل نفس المواد فقررنا نحنُ رجال الطب الشرعي أنهُ لا توجد شبهة جنائية في القضيّة رقم ٢٤٠٧ وبذلك قرر قسم روض الفرج إغلاق القضيّة في ساعتهِ وتاريخه.

- اقرا الورقة دي كمان.

قالتها ثم أعطتني ورقة زرقاء أُخرى فقرأتُها.

• إنّهُ في يوم الأحد الموافق ١٢ من شهر مايو لسنة ٢٠١٥ بشأن قضيّة جنايات القاهرة رقم ٢١٢١ قد تبيّن الآتي :- بعد مُعاينة جُثمان كلٍ من إبراهيم فتحي عبدالحميد الراوي ومنى عبد الرؤوف على بدر قد وجدنا نحنُ الطب الشرعي التابع لدائرة قسم التحرير أن عينة الدماء تحمل كلاً من مادة كريزوتنيب ومادة أموكسيسلين وبالتحرّيات وجدنا أن الزوجين كانا يتعاطيا أدوية علاجيّة تحمل نفس المواد فقررنا نحنُ رجال الطب الشرعي أنهُ لا توجد شبهة جنائية في القضيّة رقم ٢١٢١ وبذلك قرر قسم التحرير إغلاق القضيّة في ساعتهِ وتاريخه.

حين انتهيتُ من قراءة الورقة تحدثت حياة قائلة:

- ازاي التقريرين شبه بعض بالظبط برغم ان قسمين مختلفين اللي كاتبينهم؟ لما فكّرت لقيت اللي حصل هو ان يوسف طاحون قتل والدك ووالدتك وطبعاً ظابط بمعارفه القضية خلصت عشان أكيد فيه طرف أكبر من يوسف طاحون هو اللي بيحرّك الموضوع، بعدها أحمد داود وصل لحاجة وصلته ليوسف طاحون أو اللي أكبر منُه عشان، كدا حبسه يومين عشان يساومُه على حياتُه ساعتها أكيد داود موافقش عشان كدا طلع عشان ميبقاش فيه شبهة في قتلُه وبعدها اتقتل بنفس الطريقة والقسم اللي كتب تقرير الطب الشرعي هو هو القسم اللي بيشتغل فيه طاحون.

- بس يوسف طاحون مات وكل الكلام دا دلوقت ملوش فايدة.

قلتُها مستنكراً فقالتْ في ثقة أدهشتني.

- مماتش.

- ازاي يا كونان؟

قلتُها متعجّباً فضحكت ثم قالت في حزم

- حدسي بيقوللي كدا ، كمان موتُه غريب، بعد ما سيف الزهار يدلي بتصريحات ان هو القاتل وبعدين أصلاً سيف الزهار عرف منين ان طاحون القاتل؟ صدقني الموضوع دا أكبر من طاحون، وإذا كان مات على حد كلامك وكلام الكل فالشك دلوقت في سيف الزهار ان يكون هو ورا كل دا.

فقلتُ ساخراً:

- نظريّة المؤامرة مش كدا؟

- اتريق براحتك بس بكرا تقول انّي صح.

- طيب على ما ييجي بكرا ، بيقولك بقا ان انهاردا فيه ناس بتعمل أكل يجنن في الميدان.

قلتُها مُبتسماً فابتسمتْ ثم وضعتْ يدها في يدي قائلة:

- يلا بينا...

***

في الخامسة مساءً أعدتُ حياة إلى مقر عملها مرّةً أُخرى ثم سلكتُ طريقي إلى ضفاف نهر النيل لكي أُقابل المندوب الرسمي لإنهاء الأرواح حتى نتحدّث بشأن الروح المطلوبة في السماء غداً

- جيبت جثة شبهك ازاي ؟

قلتُها ليوسف طاحون فرد في ثقة قائلاً:

- مفيش جثة أصلاً .. المعارف بتنفع ، الراجل الكبير قالب على سيف الزهار ولازم التنفيذ يبقى في أقرب وقت.

أخرجتُ سيجارة من العلبة القابعة في جيب سترتي الزرقاء فأشعلها لي فقلتُ وأنا أترُك مكاني.

- بكرا...

جراند متروبوليس.

الطابق الأول.

الساعة ١٢:٠١ صباحاً.

ليلة رأس السنة.

حكمة ١٠ :- " لكل شيء بداية حتى يكون لهُ نهاية فقط".

عم الصخب المكان بمُجرّد انتهاء العد التنازُلي للسنة الميلاديّة الجديدة .. أصوات فتح زجاجات الخمر داعب الآذان ، الليلة يوجد الكثير من رجال الأعمال والحوريّات من حولهم يُغلّفون الصالة في منظر بديع.

عندها أشار لنا مدير الصالة أن ابدأوا فتوسّط المسرح ثلاثتنا.

" أنا وطارق ورامي عازف البيانو "، فلقد أقنع طارق مالك الجراند أنني عازف موهوب وسأُضيف لليلة إضافات كثيرة ستُبهر الحاضرين، ولكن كان ذلك من أجل أن نقوم بالتنفيذ بالطريقة الملائمة فقط..

عندما أصبحتُ في منتصف المرقص بدأتُ في عزف مقطوعة " requiem for a dream " حينها انطفأت الإضاءة وأضاء كاشف أحمر قاتم المكان فأضفى جوّاً ساحريّاً بجانب العزف..

قبل انتهائي من العزف بدقيقة ذهب طارق " كما هو مطلوب " إلى المنضدة

الجالس عليها سيف الزهّار وعند وصوله أعطاه زجاجة خمر إسكتلندي من النوع المُفضّل له.

ثم قال:

- إتفضل يا سيف باشا دي هدية من آدم الراوي بمناسبة راس السنة.

- شكراً.

قالها سيف فباغتهُ طارق حين فتح الزجاجة وسكب البعض منها في كأس كان على المنضدة أمامه ثم قال وهو يُعطيه الكأس في يده:

- آدم عاوز يشوف معاليك بتشرب عشان يتأكد إنك راضي عنُّه.

التقط سيف الكأس من يد طارق في ضيق ثم نظر لي وابتسم ابتسامة صفراء ثم تجرّع الكأس دفعة واحدة.

فأطلق ضحكة قائلاً:

- ميرسي ، قولّه إني لازم ارضى عنُه، كفاية إنُه بيفهم في الويسكي.

الإضاءة أخفت ملامح طارق، وكان ذلك أمر ضروري حتى لا يُلاحظ سيف الزهار " القفاز الطبّي " الذي ارتداهُ طارق حتى لا يترُك بصماته على الزجاجة..

ثوانٍ وارتبكت أمعاء سيف الزهار فذهب إلى دورة المياه، ومن الإحراج طلب من حُرّاسه أن لا يأتوا معه وألّا يرتابوا إن تأخر فهو يشعُر بوعكة خفيفة فقط، ولكن الحُرّاس ظنّوا أنهُ ذاهب للممارسة الجنس فلم يُعقّبوا وظلّوا يُطالعون الإناث المنتشرات في أرجاء المكان.

ثوانٍ قليلة ثم أنهيتُ عزفي، حينها انطفأت الإضاءة عن بُقعة المرقص كما يحدُث في بداية كل عام حتى يُقدّم العازفين عرضا بمثابة مفاجأة للحضور، ولكي أتستر على غيابي قام طارق بوضع " flash memory" في حاسوب الصالة تحمل مقطوعة الكمان التي ستُظهر أنّي مازلتُ في الصالة.

عندما انطفأت الإضاءة عن المرقص بدأت المقطوعة وبدأ طارق ورامي الانخراط معها فذهبتُ إلى دورة المياه لأُنفّذ مُهمّتي، وضعتُ " قفاز طبّي " أنا الآخر وأدرتُ مزلاج باب دورة مياه مدير المكان، الذي يوجد بداخله سيف الزهّار، ولحُسن الحظ وكما هو متوقَّع دلف إلى هذا المرحاض الذي لا يوجد بداخلهِ أو أمامه أيّة كاميرات مراقبة.

- ازيك يا سيف باشا.

قلتُها ضاحكاً فأتى صوتُه من وراء باب المرحاض.

- happy new year يا آدم وميرسي على الويسكي، كان يجنن.

حينها أفاق للحظة فخرج إلى صالة المرحاض قائلاً:

- بس انت إيه اللي جابك هنا!؟

فقلتُ في حزم:

- عزارئيل جابني هنا.

اتّسع جفناه عند سماعه الاسم، حينها أخرجتُ الحقنة بسرعة من جيب بنطالي ثم وضعتُها تحت إبطِه بعد أن لكمتُه في صدره لكمة طرحتهُ أرضاً.

- ليه كدا؟

قالها وقواه تضعُف إثر السائل الشيطاني الذي يسير في جسده.

فحاول الصياح قائلاً:

- الحقوني.

فقلتُ وأنا أضعُه بجوار مِنشفة الأيدي حتى يظهر الأمر طبيعيا عند قدوم الشُرطة.

- متتعبش نفسك محدّش هيسمعك ، دلوقت قدامك دقيقة وهتودّع ، أنا لو منك هستغفر.

ثم ضحكتُ فقال:

- أنت فاكر ان الموضوع كدا انتهى؟ تبقى غبي، الموضوع دا أكبر مني ومنك.

حينها أمسكتُ بعضده في قوّة فقال كمن يُدلي بالاعترافات بعد تعذيب طويل:

- أحمد الألفي.

حاولتُ إخفاء الدهشة عند سماعي الاسم. ولكن حينها جذبني انطفاء الضوء في أعيُن سيف الزهار ومُفارقته للحياة فتركتُه ثم ذهبتُ مُسرعاً إلى المرقص قبل انتهاء المقطوعة بثوانٍ وحين أضاء الكاشف المرقص كنتُ أقف ممُسكاً آلة الكمان والعرق يغمُرني فانهال التصفيق من الحضور الذين سُحِروا بعزف الـ " flash memory" ...

***

- بعد عَشر دقائق -

الارتياب ملأ صدور حُرّاس سيف الزهار وعقولهُم المغيّبة فبدأوا البحث عنهُ في كل أرجاء الجراند حتى وجدوا ضالتهُم قد أصبح جسدا يرقُد في أرضيّة المرحاض بلا أي أثر للروح ..

كان من بين الحاضرين نقيب الأطباء فقام بالكشف المبدئي عليه، وعند انتهائه قال أنهُ قد فارق الحياة إثر سكتة قلبيّة.

ثوانٍ قليلة كانت كافية لانتشار الشرطة في المكان، وبحضور وزير الداخلية أعطى الأمر بتشريح الجثمان ولكن أصرّت بُشرى المنفلوطي زوجة سيف الزهار أن لا يمس زوجها أي شخص من رجال الطب الشرعي أو غيرهم.

وأنّهُ سوف يُدفن بحلول فجر اليوم فوافقوا على مضض، بعدها رحل الجثمان ومعظم رجال الشرطة ولكن ظل بعضهم لاستكمال التحقيق حتى وإن لم يكُن هناك تحليل طب شرعي.

- عايز احقق مع اللي بيعزفوا عشان النور اللي بتطفوه عليهم دا يا بهوات.

قالها ضابط ثلاثيني أسمر اللون مفتول العضلات ذو شارب ثقيل في غضب.

فأتى محروس مدير الصالة مهرولاً يقول:

- يا باشا أنا كنت فاكر زيّك كدا وكنت شاكك فيهم عشان النور اتطفى، بس كلهم فضلوا يعزفوا ومفيش حد فيهم عزفُه وقف لحظة والبشوات كلهم يشهدوا بكدا.

قالها ثم أشار لنقيب الأطباء ونقيب المحاميين فهزّوا رؤسهم إيجاباً فأردف محروس قائلاً وهو ينظُر لثلاثتنا:

- وبعدين يا باشا أنا راجعت سجل الكاميرات، مفيش فيهم نفر خرج برا الدايرة دي.

ثم أشار بإصبعه على دائرة المرقص وتابع قائلاً:

- وكمان عندك مثلاً دا ، رامي دا ابن وزير الصحة الباشا حسام مدكور وعندك دا ، دا بقا طارق غريب الدالي ظابط سابق وابن المحاسب الكبير اللي ماسك مشاريع البلد وعندك دا،

عندها أشار بسبابته تجاهي ثم تابع قائلاً:

- دا آدم الراوي محقق جرايم في قسم التحرير وبيعزف كدا عشان يبسطنا ، كلهُم ولاد ناس زي ما انت شايف يا باشا وربنا ميرضاش نظلم عبيدُه.

- ماشي يا بني ، معلش يا بشوات آسفين على الإزعاج.

قالها الضابط ثم ذهب إلى أصدقائه بعدها طلب منّا محروس الرحيل فلا يوجد عزف بعد الموت وأنهُ يُمكننا القدوم غداً حتى تكون قد خفّت وطأة الاحتقان نوعاً ما..

حينها رحلتُ وطارق إلى منزلهِ.

اليوم التالي.

منزل طارق.

جلستُ أمام البيانو أتحسس قسماته التي تبثُ السحر في العقول، بينما جلس طارق شارداً وإذا بهِ بعد دقائق من الشرود يقول ضاحكاً:

- يا ابن الأبالسة ، دا انا بصيت في وشك امبارح قولت ان اللي زيك ميقتلش فرخة.

فقلتُ في ثقة:

- للمهنة أحكام يا بني.

- يوسف كدا برّا اللعبة.

فأردفتُ في ضيق:

- وانا جوّاها.

فقال متعجّباً:

- ليه!

- عشان لو زي ما سيف بيقول ان أحمد الألفي هو رئيس الموضوع دا فهو أكيد عارفني، متنساش انه أبو حياة وكمان قابلني في المستشفى.

- سيف ممكن يقول أي حاجة عشان ينجى بحياته بس حتى لو كدا ، إيه علاقتك؟ ما سيف خلاص بح ولو فيه حد تاني مكانه ترفض تشتغل.

- انت ناسي إحنا بدأنا المشوار دا ليه ، ما كل دا عشان نجيب حق ابويا وامي، ولو أحمد الألفي ورا الموضوع يبقى هو اللي أمرهم يدّوني المخدّر.

- هتقتل وزير الإعلام!؟

- سيف كان وزير العدل.

- وحياة؟

قالها فزفرتُ في ضيق قائلاً:

- أبويا وأمي أهم.

حينها أضاءت الشاشة باسم حياة فقلتُ قبل أن أُجيب المكالمة:

- أهي بتتصل ، وبعدين هي بدأت تدوّر في الموضوع، ومش بعيد توصلّنا.

اندهش طارق وقال شيئاً لم أسمعه لأنّي كنتُ قد أجبتُ على المكالمة، فأتى صوت حياة:

- تعال البيت عشان لقيت دليل مهم أوي ممكن يفتح القضيّة من أول وجديد.

- هجيلك.

أغلقتُ المكالمة وارتديتُ ملابس تعود لطارق ثم ذهبتُ في طريقي إلى حيّ الزمالك...

منزل حياة ـ حي الزمالك.

العاشرة مساءً.

درجة الحرارة 10 C°

الشتاء هو الشيء الوحيد الإيجابي بالسلب في هذهِ الحياة.

فضّلتُ المشي على أن أستقل عربة أُجرة ، الشتاء غلّفني من جوانبي وسجائري أنعشت رئتيّ الخرِبة والعقل الذي يقول العلماء أنهُ يوجد في رأسي لم أعُد أستطيع الشعور به.

الحياة كما هي..

لزجة مقززة تتلاصق بها الأيام خلف بعضها البعض كتلاصُق الأرداف وفتحة الشرج ببعضهم البعض .

الحياة هي الحياة ..

هي تعيش ونحنُ نموت.

نموت في أمل العيش مرّةً أُخرى.

السماء ..

ماذا يوجد خلف السماء؟

أُهناك قِردة يسرقون حبّات الفاكهة أيضاً أم بعض الكسالى من آثار الترفُّه.

الحُب ..

أهو قاتل كما يقول البعض؟

أم أن البعض هم القتلي!.

- آدم.

انتزعني صوت حياة من غياهبي فقلتُ متسائلاً:

- إيه الجديد؟

- طمني عليك الأول ، عرفت من التحقيقات إنك كنت بتعزف ساعة موت سيف الزهار ، الحمد لله إنك كنت واقف قصاد الناس، لاحسن مش هيرحموا اللي عمل كدا.

فسألتها قائلاً:

- اللي هو مين؟

- يوسف طاحون.

فقلتُ في سُخرية:

- مش عارف امتا بس هتبطلي تتفرجي على أفلام أجنبي!.

فقالت وهي تقوم بتشغيل مقطع مصوّر على هاتفها اتضح انهُ من تسجيل كاميرات المراقبة في الجراند:

- بس مظنش ان الأفلام الأجنبي بيظهر الميت فيها في نفس مكان ووقت وقوع جريمة.

ثم أشارت بإصبعها إلى شخص كان يقف في زاوية مرئيّة، وعندما أمعنتُ النظر وجدتُ يوسف طاحون يقف بجوار المسقا ويتلفت يميناً ويساراً.

فأظهرتُ الدهشة على وجهي عنوة فتابعتْ حياة قائلة:

- الفيديو دا هيفتح القضيّة تاني، أنا هروح أقدّمُه دلوقت للنيابة، بس قولت أوريهولك الأول.

- بصي، هو فيديو زي دا مبيُعتدش بيه أوي ، بس في الحالة دي القضيّة هتتحوّل قضية رأي عام فهيبقي ساعتها دليل إدانة قوي.

- هلبس ووصلني قسم التحرير.

قالتها ثم قامت مُتجهة إلى الغرفة القابعة بجانب الصالة، دقائق فكرتُ فيها أن إعداد عنُق يوسف طاحون للنحر ليس شيئاً مضموناً. عندها عادت الحوريّة ولكن بملابس " كاجول " ثم تقدّمتْ تجاهي وأمسكت بيدي، عندها تركنا المنزل وذهبنا حتى نُلقي بحتف يوسف طاحون...

***

عندما وصلنا أمام البناء العتيق المكوّن من أربعة طوابق ويحمل لوحة معدنيّة كبيرة تتوسّط شُرفة الطابق الأول كُتِب عليها " قسم التحرير" باللون الأبيض، تركتُ حياة تذهب في طريقها لإعطاء المقطع المصوّر لرجال الشُرطة كدليل إدانة ضد يوسف طاحون، ثم سلكتُ دربي الخاص إلى التجمُّع الخامس - فيلّا رقم ٥.

***

خلف باحة الفيلّا وجدتُه منتظراً.

أطلق ضحكة عالية عندما رآني فاتجهتُ في سرعة تجاهه ثم لكمتُه في غضب فطرحتهُ أرضاً برغم جسدُه القوي، بعدها قام يُهندم ملابسه وينظر لي بغضب قائلاً

- ما انت عملت اللي انت عاوزه ، ليه تخلينا نختلف تاني؟

فقلتُ:

- أنت إيه اللي خلّاك تروح الجراند يا بني آدم إنت!؟

فرد يوسف طاحون قائلا في حزم:

- كان لازم اتأكد بنفسي إن كل حاجة انتهت.

- هي انتهت فعلاً.

- حتى بعد ما عرفت مين ورا الموضوع؟

باغتني سؤالُه فقلتُ متعجّباً.

- إنت عرفت منين اني عرفت؟

- أنا ظابط يا بني مش مدرس كيميا، وكمان اشتغلت مع سيف ٣ سنين في عمليات تصفية، أكيد هيبقى فاكر ان معاك مصل مضاد لمفعول الحقنة فهيقولك السر عشان تلحقُه.

- تقصد إيه؟

تساءلتُ فأجاب في ثقة:

- أقصد لو بتكدّب اللي قالهولك فمن رأيي صدّقُه.

- أحمد الألفي؟

فقال بلكنة إسبانيّة:

- موريس ماركوس أرمانيوس.

" القاتل بيسيب شكل سكينة وحرف m "

تذكرتُ كلام إنجي فاتسعتْ حدقتاي في رعب ثم قلتُ والدماء تُسرع في الهروب من جسدي الذي لا يستطيع تحمُّل الصدمة.

- ازاي يعني هو اللي بيقتل؟

فأشار إلي ثم قال:

- إنت اللي بتقتل يا آدم ، ولا أقولك يا أودونيس موريس ماركوس أرمانيوس؟

سقطتُ على العشب الأخضر من هول الصدمة وجاهداً استندتُ بظهري على شجرة فأتى يوسف طاحون وجلس بجواري قائلاً:

- إنت ابنُه يا أودونيس، وبالنسبة للكوابيس اللي بتشوفها دي أكيد بسبب قتلك لأمك وجوزها.

كانت كلماتُه تسقط كالجمرات على جسدي، ولكنُّه استمتع بالتعذيب فتابع قائلاً:

- أنا أخوك .. عزرانيوس.

مد يدهُ في سلام فلم أستطع أن أُحرّك يدي من البراكين المُشتعلة في عقلي ثم نظرتُ إليه في تعجُّب فاستكمل إلقاء الجمرات على عقلي قائلاً:

- متستغربش أنا هفهّمك كل حاجة ، بعد ما انت قتلت أمنا ماريا وجوز أمنا دانيال تحت تأثير نبات فيتورا جالك فقدان كُلّي للذاكرة فقرر أبونا موريس يجندني أنا وانت في عمليات تابعة لحسابُه. فبدأ يستخدم النبات عليك عشان تنفذ الأوامر لحد ما يكوّنلك شخصيّتك الجديدة.

عندها قلتُ باكياً:

- وحياة؟

فأردف عزرانيوس قائلاً:

- حياة فاكرة ان ابوها كان مسافر لحد ما بقت عشرين سنة لإنّها كانت مع أمّها عليّا طول الوقت دا، وكانت مفهماها كدة لأنها محبتش تصدمها و تقولها ان أبوها مات وهي صغيرة وفضلت مفهّماها إن أبوها مسافر ، بعدها أبونا موريس

إتجوّز عليّا باسم أحمد الألفي، وساعتها عليّا فهّمت حياة إن دا أبوها اللي كان مسافر، وحياة وقتها كان عندها عشرين سنة، ومن ساعتها قعد ٥ سنين مع حياة كأبوها أحمد الألفي.

- يعني هو اللي حطها في طريقي؟

- لا يا أودونيس أنت قابلتها بالصدفة، ودا أكبر غلط حصل في الموضوع كله، عشان كدا أبونا دلوقت عايز يقتل حياة.

فقلتُ بآخر ما تبقى في جسدي من قوّة

- أنا مش هسمحلُه بكدا.

فرد في حزم قائلاً:

- ولا أنا ، لإني عرفت أنه قرر يخلّص عليا أنا كمان عشان حياة بلّغت عنّي.

فسألتُه:

- هنّفّذ إمتا ؟

فقال وهو يُمسك بيدي لكي يُساعدني على الوقوف:

- بكرا...

لم أستطع المرور لالتقاط حياة من موقعها في قسم التحرير كما اتفقنا بسبب ما يوجد في جسدي وعقلي من اضطرابات ما بعد الصدمة، فأوصلني يوسف طاحون - أو أخي عزرانيوس - إلى منزلي وذهب بعدها على وعد أن يأتي إلي غداً لكي نقوم بالخلاص من أحمد الألفي - أو أبينا موريس..

لم أستطع إخماد عقلي عن التفكير فبحثتُ في كل أرجاء الشقة بعد ذهاب عزرانيوس أخي المزعوم، فلم أجد أي شيء يدُل على أنني ولدتُ في هذه الشقة كما اعتقدت ، لم أجد أي شيء كصورة صغيرة من الطفولة أو ما شابه، فهرولتُ

إلى فتحي حارس العقار لأسألهُ من أنا فلم أجدُه، عندها تذكرتُ أنهُ يعمل في نهر النيل في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.

فأوقفتُ عربة أُجرة وطلبتُ من السائق إيصالي إلى ضفاف نهر النيل، وقتها كانت الكلمات تخرُج مني بثِقَل مبنيً شاهق، تابعتُ الطريق بعيني من زجاج العربة، عندها شعرتُ بألم شديد في رأسي وكأن سكينا حادا يخترق عقلي ويعبث به فأغمضتُ عينيّ من الإجهاد، عندها رأيتُ ماريا أرماي داود - أمي كما يقول عزرانيوس - تحتضني وفي صوت حنون قالت:

- اليوم أنت إبني يا أودونيس فلتعُد إليك نفسُك.

حينها قفزتْ بعض الذكريات عائدة إلى عقلي في سُرعة فهد يقفز على فريسته ففتحتُ حدقتيّ من الرعب فوجدتُ السائق يقول في غضب:

- ما تنزل يا أُستاذ ، إنت هتفضل مشرّفنا كتير؟

فتحتُ باب العربة واتجهتُ إلى مكان وجود فتحي المُعتاد وحين رآني هم ليركُض فهرولتُ بسرعة تجاههُ وأمسكتُ بتلابيبه قبل أن يُفلتْ ثم قلتُ في غضب:

- أنا فاكرك .. بس مش عارف انت مين بالظبط، احكيلي كل حاجة وإلا هقتلك هنا

فرد فتحي قائلاً في وهن:

- أنا بولس ، كنت شغّال عندكم في البيت قبل ما الأب موريس يسيب الأم ماريا ، ماريا أخدت كل حاجة من موريس لإنُه كان كاتبلها كل حاجة باسمها، بعدها راحت اتجوّزت المقدّس دانيال أرماي داود فموريس حب ينتقم وساعتها كان فيه نبات مُخدّر اسمُه فيتورا ولقاك أحسن حد هتخضع للأوامر لإنك كنت بتكره المقدّس يا أودونيس.

كنتُ أتمنّى أن أكون في حلم أو كابوس وسيرتدُّ إلي عقلي بعد الإستيقاظ منهُ، ولكن تابع فتحي أو بولس كما يقول كلامه لكي ينحر الشك بسكّين اليقين، إنّهُ واقع وليس حلما أو كابوسا فقال:

- بعد ما قتلتهم أبوك قرر يستخدمك انت و عزرانيوس أخوك، اللي هو يوسف طاحون.

هززتُ رأسي فعلِم أنّي قد علمتُ هذه المعلومة مُسبّقاً فتابع قائلاً:

- ساعتها عملّك هويّة مزوّرة بإسم آدم إبراهيم الرواي، وكان إبراهيم راجل غلبان هو ومراتُه مُنى فأخدوا الفلوس عشان يكونولك أب وأم، بعد كدا خلّاك تشتغل محقق في القسم وأخوك يشتغل ظابط شرطة عشان يتستر على اللي هتعملُه، وخلّاني بوّاب العمارة عشان تبقى تحت عينيّ وعشان إبراهيم هدد أبوك انُّه هيقولك كل حاجة ، أبوك خلّاهم يحقنوك بفيتورا تاني، ولما قتلت إبراهيم ومراتُه أبوك زعل عشان خسرت صوتك وقتها لإنك كنت فاكرهم أهلك الحقيقيين، بس يا بني اللعبة اللي أبوك بدأها اتقلبت جُهنّم وأنا أول حد هيتضحّى بيه، سامحني يا أودونيس يا بني أنا لازم أهرب ، هروح أقعد وسط أهلي في أسوان.

لم أُعقّب، فكلامُه بدا منطقياً إلى حد الكمال فقُمت أترنّح من هذيان الحقيقة التي تم حقني بها خلال ساعة واحدة ثم سلكتُ طريقي إلى منزل لم أُولد به...

في اليوم التالي.

انتزعني صوت الطرقات على باب المنزل من النوم الذي جاهدتُ طوال ليلة الأمس لأُحققُه بعد تجرُّع زجاجات تشيفاز ريغال الباقية لديّ وأستحلاب كُل نيكوتين العالم الذي أملكه..

فذهبتُ إلى الباب ثم فتحتُه ولم أُلاحظ أبداً أنني أرتدي سروالاً فقط ..

اقتربتْ حياة منّي دون أن تنطق حرفا واحدا ثم قبّلتني للمرّة الأولى في الحياة الحقيقيّة، حياتي كأودونيس وليس هذيان الكوابيس في ذاكرة آدم الخرِبة ، فانهلتُ عليها تقبيلاً كمن وجد "Kate Winslet" تقف عارية أمامه بعدها قُمت باحتضانها ثم جردتُها من ملابسها.

وظللنا لحولين كامِلَين أو أكثر على هذا الوضع كما ظننت..

وبعد انخماد البراكين.

وانعدام الزلازل.

وانحسار ماء الفيضانات.

وغروب الشمس.

وإتمام القمر بدراً.

وانهيار الطبقات التكتونيّة

ومع انتهاء العالم.

انتهينا من المُضاجعة...

جلستْ بعدها على كرسي بجانب الكُرسي الذي وضعتُه في الشرفة ثم وضعتْ رأسها على كتفي ترمُق الشارع العتيق بعينين تسحقان حُزن العالم أجمع وتحوّلاه إلى سعادة أبديّة.

وبعد الصمت نطقتْ شهداً في صورة كلام فقالتْ:

- أول ما القضيّة دي تخلص عايزين نروح راس شيطان ، ماما عليّا كان نفسها تروح هناك.

نفثتُ دُخّان السيجارة ثم نظرتُ في عينيها وقلتُ:

- أنا أروح معاكي جُهنّم لو عايزة.

ضَحِكَتْ حتى دمِعت عيناها فقالت:

- أنا عارفة إنك تعرف كتير عن موضوع القضيّة، وعارفة كمان إنك تعرف القاتل ، أنا فهمت كدا دلوقت عشان عرفتك، وعشان اللي يعرفك هيعرف انك مبتعرفش تكدب، وانا قررت إني لازم آخد الفيديو من البوليس ونمشي من هنا.

حكمة ١١ :- " الهروب من المعارك هو أسلم الحلول لجُندي مُصاب لا يملك مَهربا".

باغتني قولها فلم أستطع أن أُعقّب فنظرتْ في عينيَّ ثم تابعتْ قائلة.

- أنا مش عايزة أعرف حاجة ، أنا مش عايزة غيرك يا آدم.

قالتها ثم أمسكتْ بيدي ، يد أودونيس وليس آدم كما ظنّتْ، فما كان بيدي سوى أن أمسكت يدها..

عندها قلتُ والدموع تملأ عينيّ.

- ولا أنا عايز غيرك يا حياة.

حكمة ١٢ :- " الاختيارات الخاطئة ما هي إلا طريق عبور الاختيارات الصحيحة".

ـ بعد ساعة ـ

الساعة الثامنة مساءً.

ذهبتْ حياة إلى قسم التحرير أملاً في أن تسترد المقطع المصوّر ليوسف طاحون -عزرانيوس - من الشرطة وعند وصولنا القسم تركتُها ثم اتجهتُ إلى فيلّا ١١ في التجمُّع الخامس....

الأثاث مأخوذ من الجنة..

يتوسّط الصالة المهيبة من بين الأثاث الذهبي المُنمّق والتُحف العتيقة مسبح دائري كبير يوجد بداخله مياها للخلود، وأنثى في أواخر العقد الرابع تتلوّى في الماء فتبُث بطيّاته عرق ممزوج بالمسك،

أنثى ليست كباقي الإناث..

فالسيقان رطلان من ذهب عيار ٢٤ أمّا الكعوب فهي تهزُ عرش الملوك والفخذ ١٠ كيلو جرام من الشهد المُحلّى بينما الأرداف ٦ كيلو من " السيرتونين " هرمون السعادة والعيون سهام خضراء تجرح ولا تقتُل ولا يوجد لسحرها دواء ، الشفتان من لحم الغزلان مُزيّنان بطابع الحُسن الأسمى في الوجود ، الأنف دقيقة وحادّة كالصراط ، الشعر الأحمر أطنانا من دماء الخالدين ، النهود تجمع ماء نهري دجلة والفُرات والمنبع هو النهد الأيمن بينما المصبّ هو النهد الأيسر.

عند وصول عيناياَ للنهود انتبهتْ لي فقامت من المسبح ثم اقتربت وأرجُلها العارية تشقُ الأرض حولي ثم همست في أُذني بدلال قائلة:

- صوفيّا.

فقلتُ وعيناياً تخترقها.

- آدم.

عند سماعها الإسم قطبت جبينها ثم وضعتْ إصبعها السبابة على فمي وقالت

- تؤ تؤ ، أودونيس أحلى.

هززتُ رأسي خاضعًا لسحرها.

فتابعتْ قائلة:

- بتشرب؟

- أيوه.

عندها نظرتْ في وجهي ثم قالت وهي تضع إصبعها في فمها:

- بشرتك هايلة ، وشك كمان يجنن عامل زي ملوك اليونان أيام العبيد ، قبل ما ييجي سبارتاكوس اللي حررهُم.

فقلتُ:

- شكلك مش بتحبّي التقييد.

- never انا ٢٤ ساعة تقريباً ملط.

اندهشتْ ملامحي فتابعتْ قائلة:

- بس التقييد هو أحسن حل للجنس البشري ، البشر بيحبّوا يتحطّوا في قفص.

ثم قالت وملامح وجهها تملؤها الرغبة:

- الافتراس.

- تقصدي إيه؟

تساءلتُ فقالتْ وهي تسكُب خمر " الكونياك " في كأس أعدتهُ لي:

- البشر بتحب تُفترس ، يعني مثلاً كل واحد بيحب يبقى خاضع ، والسُلالة اللي مبتخضعش هما أكتر المُفترسين وجودا ، وهما اللي بيقوموا بعمليّات الافتراس الكبيرة.

- ma.

بتر الصوت المُرفّه حديثنا، وكان صاحبهُ شابا في منتصف العقد الثاني بدتْ ملامحهُ مُطابقة لصوفيا القابعة بجواري مع اختلاف الشعر الأسود القصير، كان ذلك حين مدّ يدهُ لي في سلام ثم قال:

- أعرّفك بنفسي محمد أحمد داغر ، أخوك على وصول.

وبمُجرّد انتهاؤه من الكلام دلف عزرانيوس من الباب الذهبي للفيلّا قائلاً وهو يتقدّم تجاهنا.

- كل حاجة جاهزة

فتساءلتُ:

- كل حاجة إيه؟

فقالت صوفيا:

- your dad بيعشقني في السرير فطلبت منُّه يمشّي كُل الحراس انهاردا عشان نتبسط ، هو وافق بس I'am sure انُّه مش هيمشّيهم لأنُه بيقلق.

لم أُلاحظ ظهور أي أثر من آثار الغضب على ملامح محد داغر الذي تابع قائلاً

- أنا هدخل معاها على أساس إني الكوافير بتاعها وهيبقى معايا في الشنطة الأسلحة اللي هيستخدمها.

ثم أشار بإصبعه كما تُشير النساء على عزرانيوس وتابع قائلاً:

- عشان يقتل الحُرّاس.

فقطع عزرانيوس حديثه قائلاً:

- بس فيه مشكلة، أوضة المكتب فيها كاميرات ومش هنعرف نعطّلها.

حينها بترتُ حديثه فقلتُ وأنا أحتسي بعض الخمر الذي سكبتهُ صوفيا لي

- دا المطلوب ، هنّفذ إمتا؟

فقال عزرانيوس وهو ينظُر في ساعة يده:

- كمان ساعتين.

" ٣"

- بعد ساعتين -

العاشرة والنصف مساءً.

منزل أحمد الألفي – موريس.

" بداية النهاية".

الجو مُظلم وقاتم كسحُب بلا أمطار ، رائحة أنفاسي كريهة من الاضطراب ، ريقي لهُ طعم لاذع كتبغ مُشتعل ، قلبي يقفز مائتي متر للأعلى ولا يرتدّ ، الأيام القليلة الماضية نحرتْ عُنق عقلي وسكبت دماؤه في فروج العاهرات ، بخلاف القبّعة السوداء التي ارتديتُها لأُخفي ملامح وجهي، ارتديتُ قميصا أسود اللون أيضاً ليُضفي بعض الظُلمة على جسدي الأبيض الهزيل.

وفي جيب بنطالي الأسود تقبع الوسيلة الأسمى لنحرٍ بلا دماء ، حقنتي العزيزة ذات السكتة القلبيّة ، اليوم سأجتز عنُق موريس - أبي بلا قطرة دماءٍ واحدة ، اليوم سأثأر من نفسي ولنفسي ، سأُنهي مسرحيّتي وسأُسدل الستار الدموي ثم أصفّق بدلاً عن جمهوري المنحور ، سأكون نقمة القدر وسوء الحظ وبلاء الإله..

- جاهز؟

قالها عزرانيوس مُقاطعاً غياهبي فأردفتُ في ثقة.

- أيوه.

حينها لكمني بقوّة في وجهي فأسقطني أرضاً، ولكن لحُسن الحظ لم يُغش علي.

تحدّث بعدها فأتى صوتُه بعيداً كمسيرة سبعين عاماً على الأقدام.

- هندخُل دلوقت ، والتزم بالاتفاق بلاش مفاجآت.

هززتُ رأسي غير المُتزنة من آثار اللكمة مُتفهّماً.

حينها قيّدني برباط أسود من البلاستيك ثم اقتربنا من الفيلّا فأشهر الحُرّاس الأسلحة في وجوهنا فقال يوسف طاحون -عزرانيوس - مُدّعياً التوتُّر:

- أنا النقيب يوسف طاحون يا بني ، قول لأحمد باشا إنّي جبتلُه الهديّة اللي كان طالبها منّي.

حينها ذهب أحد الحُرّاس ثم عاد مرّة أُخرى بعد لحظات.

وفتح لنا باب الفيلّا الخلفي، عندها دلفنا من الباب الحديدي المهيب ولم أُميّز أيّة تفاصيل أثناء دخولنا، فلقد نكستُ رأسي في الأرض كمن تبوّل على نفسه وسط الجموع.

- الباشا بيقولّك استنّاه هنا.

قالها حارسٌ مفتول العضلات ذو شعر أشعث ولكنه قويّا فهزّ عزرانيوس رأسه فذهب الحارس وتركنا.

- ركز يا أودونيس أمسك خُد دي.

قالها عزرانيوس ثم مدّ يدهُ إلي بنوع ما من الحبوب.

- إيه دي؟

قلتُها مُتسائلاً فأردف:

- ترامادول ، هيفوّقك من الضربة، إنجز خُدها مفيش وقت.

التقطُها منهُ ثم ابتلعتُها، كان ذلك حين دلف موريس الحجرة فضحك عندما رآني ثم قال باستفزاز:

- الفار شرّف ، والعيلة اتلم شملها من تاني.

فقال عزرانيوس وهو يُشعل السيجارة التي وضعها أبونا موريس في فمُه:

- أظن كدا عملت اللي عليا.

فرد موريس قائلاً وهو ينفُث الدُخّان وينظُر إلي:

- لسّا ، فاضل حياة ، أنا كلمتها عشان تيجي.

إنبعجتْ ملامحي وكنتُ أنوي عدم الالتزام بالاتفاق ولكن لم أفعل شيئا، اكتفيتُ بالصمت وإظهار الخوف على وجهي.

- أمشي إنت يا عزرانيوس.

قالها موريس، فانصرف أخي ثم اقترب أبي من وجهي قائلاً ويداه تُلامس خدّي.

- كبرت يا أودونيس ، بس هي دي الحياة يا ابني، لما الزهرة بتنضج بنقطُفها، واعتبرني هحفظ روحك في مكان تاني، مكان بعيد عن هنا.

قالها ثم أشار بإصبعهِ السبابة على قلبه وتابع قائلاً:

- مش عايزك تزعل على حياة، ما هي بنتي برضُه إنت نسيت ولا إيه؟

مش الأب اللي خلّف الأب هو اللي ربّى يا أودونيس يا ابني.

فقلتُ بقوّة:

- أنا مش ابنك.

فردّ في ثقة قائلاً:

- إدّيني سبب واحد ميخلّكش ابني.

ثم رفع يدهُ اليُمنى أمام عينيه وبدأ في العدّ على أصابعهِ قائلاً.

- واحد قاتل ، اتنين انتقمت من اللي أذوني ، تلاتة نسوانجي ، أربعة عازف شاطر زي ابوك ، خمسة.

ثم قطب جبينه وتابع قائلاً:

- أه هي خمسة دي بقا " ذكي " والذكي يا بني مبيعرفش يعيش في دنيتنا.

أنا هودّيك دُنيا أحسن ، حجزتلك أنت وحياة قبر بيطُلّ على النيل، لكن ثق في بابا روعة هيعجبك.

حينها أتت صوفيا في قميص نوم أحمر فبترتْ حديثنا ثم قالت وهي تتثاءب.

- baby إيه اللي أخّرك؟

تصنّعتْ الدهشة عندما رأتني ثم تابعتْ قائلة:

- shit إيه دا يا احمد!؟

فرد موريس قائلاً في غضب:

- إطلعي فوق دلوقت.

كان ذلك حين اقتربتْ صوفيا تجاهي وأخذت السكّين الموجودة في طبق الفاكهة الموضوع على الكومود بجانبي خلسة ثم قالت في سرور وهي تضعها على رقبتي:

- نفسي أشوف الدم ، إصحابي دايماً بيقولوا أنُه مُفيد جداً في الوصول للنشوة.

حينها ضحكتْ ضحكة هستيريّة ثم وقفتْ خلف ظهري قائلة:

- أنا بشوفهم بيدبحوا الخروف كدا.

كان ذلك حين فكّت قيدي بالسكّين دون أن يُلاحظ موريس شيئا فركضتُ في سرعة تجاهه ثم أودعت الحقنة قلبه وقلتُ وأنا أُحاول تنظيم أنفاسي من الأدرينالين المُندفع في أوردتي:

- معلش بقا اسبقني انت ، ما خمسة دي هي المُصيبة ، الذكي مبيعرفش يعيش في الدنيا عشان بيمثّل إنُّه مش عايش، بس هو الوحيد اللي بيعرف يعيش وقت ما يحب، إنت اللي بغبائك افتكرت إن مفيش حد هيعرف يخرُج برّا توقُّعاتك وللأسف كلّهُم برا دايرتك يا والدي ، ابعت سلامي للأم ماريّا وقوللها أودونيس يشبهك ميشبهنيش.

فرد موريس في وهن قائلاً:

- مفيش موتة أحسن من إني أموت على إيدك يا بني.

حينها انطفأت الأضواء في أعيُن موريس وفارقت الروح جسده.

كان ذلك حين دلف عزرانيوس من باب الغرفة قائلاً بنبرة متوتّرة:

- لازم نمشي من هنا حالاً ، حياة قدام الباب الرئيسي للفيلّا.

دقائق قليلة وكُنّا خارج الفيلّا من بابها الخلفي، كان ذلك حين تلقّيتُ اتصالا من حياة فأجبتُ لأجد صوتها الباكي يقول:

- بابا مات...

اتجهتُ بسرعة إلى المنزل لكي أستبدل ملابسي ببذلة سوداء اللون ثم عدتُ أدراجي إلى الفيلّا، ولم أنس طلب العنوان من حياة ، حين دلفتُ من الباب الرئيسي كان البشر مُنتشرين كحبّات الأُرز في كل أرجاء الفيلّا، من بينهم كانت تقف حياة باكية تُجاهد لالتقاط أنفاسها، عندها رأتني فأتت مُسرعة واستقرّت بين ذراعيَّ.

- بابا راح يا آدم.

قالتها والدموع تنهمر من أعيُنها البنيّة فضممتُها إلى صدري ووضعتُ ذقني على رأسها ثم قلتُ محاولاً الثبات:

- اهدي عشان خاطري مش هينفع كدا.

فقالت:

- أنا مش مستحملة ، عايزة أمشي من هنا ، مشّيني من هنا بالله عليك.

حينها نظرتُ في عينيها ثم قلتُ وأنا أُمسك بيدها:

- يلا بينا.

نهر النيل.

الساعة الحادية عشرة مساءً.

درجة الحرارة 9 ْC.

كعادتي ..

لساني غير مُجدٍ بالمرّة في مثل هذه المواقف ، وبجانب برودة الجو فمن ظنّي إن الحجر سيكون تحطيمه أهون من تحطيم الصمت القابع بأحبالي الصوتيّة.

- إحنا جينا الدُنيا ليه!؟

قالتها حياة وعيناها مُعلّقة بظل القمر المُنعكس على الماء أمامنا، فأحضرتُ فأس الكلام وهممتُ لأُحطّم بهِ صمتي فتحدّث قائلاً:

- عشان نعيش.

فنظرتْ إلي في ذهول ولم تُعقّب، ثم أشاحت بوجهها بعيداً عنّي مرّةً أُخرى فقلتُ وأنا أضع رأسها على كتفي:

- الناس اللي بتودّعنا و تموت ، بتدّينا طاقة سلبيّة عشان نكمّل كأموات، لكن كل لحظة حياة في موتنا بتزيد عشان نفتكرهُم ، تفتكري دا مش سبب وجيه يخلينا نعيش عشانهم حتى لحد ما نروحلهم؟

- أنا عايزة اسيب البلد وأمشي.

قالتها ودموعها تنهمر على كتفي فقلتُ وأنا أمسح دموعها:

- أسبوع واحد بس ، فهزّت رأسها متفهّمة ثم غلّفنا الصمت مرّةً أُخرى...

" بعد إسبوع".

مسرح الهوسابير.

الساعة السابعة مساءً.

المسرح الدائري ممُتلئ بالحشود خلف تلك الستائر الزرقاء من الداخل والحمراء من الخارج في انتظار دخولي حتى أبثُّ لهم السحر على هيئة مقطوعات تخرُج من آلة الكمان الخاصة بي ، كنتُ قد ارتديتُ بذلة سوداء وقميص أبيض دون رابطة عنُق اختارتهُما لي حياة قبل يومين .. حياة المسكينة التي فضّلتْ العيش في النسيان عن الموت بسبب الأحزان ، جلستْ معي في منزلي طوال الأيّام الماضية ، أحببتُها كما لم أُحب أحداً من قبل ، لقد أصبح كل جُزء في جسدي ينتمي لها، وعندما أرتدُّ بعيداً كنجم يترُك مجموعته الشمسيه تسحبني من الذَنَبْ الخاص بي لترُدّني إليها ، ترُدّني بشوق دفين كمن غاب عن محبوبته أعوامًا طوالا ، هي عالمي الخاص الذي أُسرع في اللجوء إليه بعد كُل حُطام يتساقط من هالة قلبي الحيّة الميّتة.

- جاهز يا بابا؟

أفاقني صوتها من بئر شرودي العميق فقلتُ وأنا أُقبّل وجنتها:

- جاهز يا قلب بابا.

ابتسمتْ ابتسامتها الملائكيّة في فُستانها الأحمر ثم قبّلت خدّي وأتجهتْ إلى

سلالم تقودها إلى مقاعد الجماهير الأماميّة، حينها أغلقتُ زر سُترتي وأخرجتُ آلة الكمان من حقيبتها وأشرتُ لعامل الإضاءة أن يُغلق الأنوار ويُضيء كاشف أبيض ساطع على نُقطة وقوفي ثم اخترقتُ الستائر متوسّطاً المسرح...

تصفيق حاد من الجمهور أصابني بطنين خفيف في أُذنيَّ بعدها بدأتُ في عزف مقطوعتي المُفضّلة " requiem for a dream " ...

إيقاعي الخاص أنعش قلبي وبث بِهِ الذكريات دفعة واحدة فتذكّرتُ كل شيء حدث قبل الشهر الماضي مروراً به، عندها تحوّل عزفي إلى سحر لم أظن يوماً أنّي أملكُه ، أضاء الكاشف الأحمر نقطة وقوفي فتخللتني الإضاءة ثم بدأتُ في التمايُل مع نغماتي الخاصة فانسحر الجمهور وهتف باسمي، وعند انتهائي من العزف فتحتُ حدقتيّ اللاتي أغلقتهما طوال فترة عزفي فوجدتُ كاشفا أبيض ساطع يُضيء كُرسيا في منتصف المسرح وعلى الكُرسي كانت تجلس إنجي ترمُقني ثم تضحك ضحكاً يشقُ جدران المسرح، عندها أتى رجال الشُرطة وحاصروني من اليمين واليسار ثم أمسكوا بي وقيّدوني.

- أنت مقبوض عليك بتهمة قتل الوزير أحمد الألفي.

قالها الضابط الذي قام بتقيدي فلمستُ الدهشة في وجه حياة التي بهتت ملامحها بغتة ، لم يُمهلني أحد وقتاً لأقوم بالشرح فلقد اقتادني رجال الشُرطة إلى العربة الخاصة بهم الرابضة أمام باب المسرح فصحتُ قبل دخولي العربة قائلاً:

- أنا أودونيس.

حينها تلقيتُ لكمة قويّة من الضابط الغليظ، بعدها تحدّث قائلاً:

- ابقي قول الكلام دا في النيابة يا روح أمك.

انطفأت الإضاءة بغتة بعد سماع جملته التي أتت مشوّشة إثر اللكمة القويّة التي تلقيتُها...

المكان:ـ لا أعرفه.

الساعة:- لا أتبيّنُها.

درجة الحرارة:- لا أستطيع الشعور بها.

التفاصيل:- مُبهمة لانغلاق الأعيُن.

الوعي - اللاوعي :0- - 10

حين فتحتُ حدقتيّ صعقتني الإضاءة ولكنها أنارت بعض التفاصيل في عيني فوجدتني أجلس على كُرسي في مكتب حكومي عتيق ومن حولي جلس اثنان لا أستطيع أن أُميّز ملامحهُما ومن أمامي جلس الضابط الغليظ الذي لكمني، بالكاد تذكّرتُه.

- ابدأ المحضر يا محمد.

قالها الضابط الغليظ ثم تابع قائلاً:

- أنهُ في ساعتهِ وتاريخه قررنا نحنُ معتز الدهشوري رئيس مباحث قسم التحرير فتح القضيّة رقم ٢٧٥٠ جنايات القاهرة بشأن مقتل أحمد الألفي وزير الإعلام السابق.

- فوق يا بني.

قالها الضابط عينُه ثم حدجني بنظرة اشمئزاز وتابع قائلاً:

- إيه أقوالك في التُهم المنسوبة إليك

حاولتُ التحدُّث ولم أجد صوتا يُذكر فسعلتُ حتى انشقّت حنجرتي بعدها تحدثتُ متسألاً:

- تُهم إيه؟

فقال بغضب والزبدُ يتطاير من فمه:

- إنت هتستعبط بروح امك ، أنا قدامي هنا إثبات انك آدم الراوي وإنك مُتهم بقتل الوزير أحمد الألفي وفيه فيديو متصوّر بكدا.

فقلتُ في سخرية:

- بس فيه غلط هنا يا معتز باشا ، أنا أسمي أودونيس أرمانيوس مش آدم الراوي.

إندهش الضابط عند سماعه الاسم ثم حاول السيطرة على ملامح الدهشة التي تعتلي وجهه وأردف قائلاً:

- شغل جنان هوّ؟

ثم هوى بيدهِ على زجاج المكتب في غضب وتابع قائلاً:

- أي ابن كلب عايز ينفد من جريمة دلوقت يعملنا نفسُه مجنون ، مش أنت مجنون؟ أنا هوريك الجنان على أصولُه يا روح أمك.

ثم صاح قائلاً:

- صبحي ، أنت يا ابن الو**** يا اللي اسمك صبحي.

حينها دلف رجُل سمين الحجرة مهرولاً ثم قال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة.

- أوامرك يا معتز باشا:

فرد الضابط في سُخرية قائلاً:

- ورّيلُه الجنان بتاعنا يا صبحي.

***

بعد ساعات متواصلة من الجنان "التعذيب" ألقاني صُبحي السمين في غياهب زنزانة مُظلمة لا حياة فيها ولا شيء آخر، خلاف البعض مِن أرواح مَن سبقوني وجلسوا بها ، عند دخولي الزنزانة جلستُ القُرفصاء على أرضها المُبتلّة ثم نظرتُ إلى السماء من الفرجة العالية في سقف الحجرة ثم قلتُ والدموع تنهمر من عيني.

- جبتني هنا ليه؟ عشان تعذّبني؟ اتبسط أنا استويت خلاص ، مسرحيتك خلصت ومبقاش ليها طعم.

تلقيتُ الصمت كإجابة مُفجعة فلم أقو على قول شيء آخر، عندها خارتْ قواي ثم سقطتُّ مغشيًّا علي في أرض الحجرة

***

- أصحى يا أخ***

كان الصوت لصُبحي الذي أفاقني من غياهب النوم وعدم الإدراك..

لا أعلم لكم لبثتُ من الوقت نائماً، فلا يوجد اتصال بمعالم الحياة الخارجيّة في مثل تلك الأماكن، فلا يوجد " إنستجرام السجن " أو " فايسبوك المأمور " أو أي شيء من هذا القبيل، فقط الجدران الباهتة والتعذيب وأصوات الآهات ثم الصمت والصمت ..

اقتادني صُبحي إلى غرفة الضابط معتز وحين دلفنا كان مُعتز يضع سماعة الهاتف على أُذنه ويقول في توتُّر:

- أوامرك يا باشا هيتعرض على المحكمة بكرا الصبح ، في رعاية الله ، مع السلامة يا باشا.

ثم وضع سماعة الهاتف ونظر إلي ثم قال:

- خلاص يا صبحي مفيش داعي ، رجّعُه زنزانتُه وبكرا يمشي من هنا على

محكمة القاهرة ، وكفاية جنان كدا عشان مايبنش على جسمه حاجة وهو في المحكمة.

فهزّ صُبحي رأسه متفهّماً ثم قال:

- أوامر معاليك يا باشا.

انصرفنا بعدها ثم أودعني الزنزانة مرّةً أُخرى...

***

في صباح اليوم التالي أودعني اثنان من رجال الشُرطة العربة التي أوصلتني إلى محكمة القاهرة، وحين دخولي قفص الاتهام صاح حاجب المحكمة قائلاً.

- القضيّة رقم ٢٧٥٠ جنايات القاهرة المُتّهم آدم إبراهيم الراوي.

فصحتُ حتّى انشقّت حنجرتي:

- أنا أودونيس أرمانيوس.

- هدوء في المحكمة يا مُتّهم.

قالها قاضي الجلسة السمين ثم اتكأ على كُرسيه لكي يقوم بتجهيزي لقُدّاس الموتى

فاستمررت في الصياح:

- أنا أودونيس.

وأستمرّت حياة ترمُقني من بين الحضور في ذهول بعينيها الباكيتين.

- محكمة.

قالها القاضي ثم وجّه سؤاله إلي قائلاً:

- فيه فيديو تم تصويره من كاميرة مكتب الوزير السابق أحمد الألفي،

والفيديو بيظهر فيه آدم الراوي أثناء قيامه بقتل أحمد الألفي، إيه أقوالك في التُهم المنسوبة إليك؟

فصحتُ قائلاً:

- أنا أودونيس.

فقال القاضي:

- يتعرض دلوقت حالاً على دكتور أمراض نفسيّة وعصبيّة.

ثم صاح في الجموع.

- الحكم بعد المُداولة.

حين انصرف القاضي وزملاؤه من حوله إلى غرفة المداولة أتت حياة تجاهي، وعند وصولها أمامي قالت وصوتها يبكي:

- قتلتُه ليه؟

- أحمد الألفي مش أبوكي يا حياة ، دا أبويا واسمُه موريس ماركوس أرمانيوس.

فصاحتْ في وجهي:

- إنت اتجننت ، بتبرر قتلك لأبويا بجنانك دا!؟

لم أُعقّب، فقط أخرجتُ يدي من بين القضبان ووضعتُها على رأسها فلم تُبعدها وبكتْ فقلتُ وقلعة صوتي تنهار:

- لازم تصدّقيني ، اعملي تحليل DNA.

كان ذلك حين جذبني أحد الضبّاط من يدي ثم ذهب بي إلى غُرفة قام الطبيب النفسي بفحص حالتي بها.

واستمررتُ طوال فترة فحصي بالصياح في وجه الجميع قائلاً:

- أنا أودونيس.

عند عودتي إلى قفص الاتهام في ساحة المحكمة قال القاضي بصوته الغليظ:

- بعد الاطلاع على أوراق القضيّة رقم ٢٧٥٠ جنايات القاهرة المُتّهم فيها آدم إبراهيم الراوي بقتل وزير الإعلام السابق أحمد الألفي، وبعد الاطلاع على الفحص النفسي للمُتّهم وجدنا أنهُ يُعاني من انفصام حاد في الشخصية، وعلى ذلك قررنا نحنُ هيئة قُضاة محكمة القاهرة أن يتم وضع المُتّهم في سرايا العبّاسيّة للخضوع للعلاج الإجباري والمُلاحظة الدائمة ، رُفِعت الجلسة.

العبَاسيّة.

المكان مُصاب بالهذيان الكُلّي ..

الجُدران البيضاء مُلطّخة بالأفكار التي تدور في عقول المجاذيب الخرِبة ، كعادتي أظنُ القاطنين هُنا لهم عقول فذّة، و لكن عند دخولي الغرفة اختلفت الأوضاع ..

الجدران باهتة كالبشر الذين تضمّهُم ، الأسرة يجلس عليها أشباه أشخاص بعضهم يولّي وجههُ الشاحب للفراغ والبعض الآخر يرمُقني بنظرة ذئب غير ماكر يُريد الانقضاض على فريسته ، عند دخولي الحجرة كان يُمسكني رجل أسمر نحيف لهُ شارب أسود ثقيل ، وحين وصلتُ إلى سريري الخاص اقترب أحد المجاذيب في سرعة تجاهنا ثم ضرب الرجل ضربة مدوّية أسقطتهُ أرضاً، بعدها اتجه لي ولكمني أسفل ذقني فسددتُّ لهُ لكمة في صدره ثم أمسكتُ برأسه ووجهتُها لمقدّمة السرير الحديدي ثم انهلتُ عليه باللكمات فأتى حارسان بعد ثوانٍ قليلة وقيّدوني ثم أودعوني غُرفة الحبس الانفرادي..

منزلي الجديد.

زنزانة الحبس الانفرادي.

6:50 صباحاً كما قال الحارس وهو يقدّم لي الطعام.

الخدر يسري في جسدي...

مُلقىً على الأرض وسط الأسماء التي نقشتُها على جُدران بيتي الجديد " آدم -أودونيس ، يوسف - عزرانيوس ، أحمد - موريس ، فتحي - بولس ، المقدّس دانيال ، ماريّاً "، ظهري كمن دهسهُ القِطار ذهاباً وإياباً دون رحمة..

تعتليني الدهشة.

تُضاجعني.

لتُنجب الأفكار التي تملأُ حلقي.

محجريّ يدوران كبندول الساعة في سرعة لم أعهدها من قبل أنظُر بهما على كُل ما فعلتُ ونقشتُ على الجدران ، راضخ للمصير كرضوخ الملائكة للإله عندما أمَرهُم بالسجود لآدم ، رافضٌ للذكرى كشيطان أشِر أبى الخضوع والتذلُّل في يومٍ ما...

عقلي مضطرب ، قلبي يخفق ويهتز ، الجدار يقترب منّي ليسحق عظامي فأرى بهِ جُملة " عليك التذكُّر يا صاحب الإثم " ...

ضربتني صاعقة الفكرة قبل أن يسحق الجدار عظامي فنقشتُ بملعقة الطعام أسفل كلمات الجُملة بالتتابُع.

02121

ثم اتجهتُ إلى الحائط ...

الساعة الواحدة مساءً.

اشتعل الشك في صدر حياة بسبب كلام آدم في المحكمة لها ، فما كان لها سوى أن تبحث عن ضالتها، وكان من اليسير الحصول عليها، وهي خُصلة شعر كاملة وجدتها في الفيلّا تعود لأحمد الألفي الذي ظلّتْ تسأل نفسها أين كان طوال العشرين عاماً الأوائل من عُمرها، وكيف يُعقل أنّهُ لا توجد معلومة واحدة عنهُ قبل عودته من السفر وهو وزير الإعلام، ولابُد أن تكون حياتُه تحت المجهر؟، فأخذتْ الخُصلة بعد تفكير طويل ثم ذهبت لصديقها " يحي كرم "، وهو طبيب شرعي لدي قسم الأزبكيّة.

- ازيك يا يحيى.

قالتها حياة وهي تدلُف من باب الحجرة البيضاء ذات الإضاءة زرقاء اللون.

- حياة ، البقاء لله ، لسّا عارف من الأخبار سامحيني على التقصير.

- ولا يهمك ، عايزاك في خدمة.

فقال يحيى في تساؤل:

- اؤمري.

- عايزاك تعمل للخُصلتين دول تحليل DNA.

قالتها حياة ثم أعطتهُ خُصلة تعود لأحمد الألفي وأُخرى تعود لها.

- بس خدي بالك التحليل بياخُد وقت.

فقالت حياة في حزم:

- عايزاه انهاردا.

فقال يحيى:

- مُستحيل ، التحيل بياخد من ٤ لـ ٥ أيام.

حينها ضربت إنارة الفكرة عقل يحيى كرم فقال بشغف طالب مُجتهد:

- فاكرة قضيّة تفجير الكنيسة البطرُسيّة؟

فقالتْ حياة في تعجُّب:

- أيوه.

فرد يحيى قائلاً:

- يومها دكتور أيمن فودة فهّمنا ازاي نطلّع التحليل في ١٢ ساعة بس.

حينها نظرتْ حياة في ساعة هاتفها ثم قالت وهي تُغادر الغرفة:

- واحدة بليل هعدّي عليك.

الساعة الواحدة صباحاً.

دلفتْ حياة إلى الحجرة لتجد يحيى مُنهمكا في العمل، ولكن حين رآها ترك ما في يده وارتسمتْ على وجهه ابتسامة فخر ثم قال وهو يُعطيها ورقة بيضاء.

- النتيجة negative ، العينتين مش لنفس الشخص.

فقالت حياة التي جاهدتْ لتُخفي الدهشة عن ملامح وجهها وهي تنظُر في ورقة نتيجة التحليل.

- ولا حتّى بنتُه؟

فقال يحيى في ثقة:

- ولا حتّى بنتُه ، الحمض النووي للشخصين مُختلف تماماً.

حين انتهائه من الجُملة كانت قد اختفت حياة من الغرفة...

الساعة الثانية صباحاً.

مُستشفى العبّاسيّة.

حين دلفتْ حياة من الباب الحديدي للمشفى العتيق وجدتْ الأجواء مُضطربة أكثر من الوضع الطبيعي فسألتْ أكثر من شخص عن ماهيّة الوضع ولم يُجبها أحد. فعبَرتْ من الساحة الكبيرة حتى وصلت إلى الممر، كان ذلك حين سألت أحد الضُبّاط قائلة:

- أنا حياة أحمد الألفي ، هو إيه اللي حصل؟

- قاتل والدك الله يرحمه هرب.

ارتسمتْ الدهشة على وجه حياة، وفجأة هرول الضابط مُسرعاً

عند سماعه صوت الصرخات فهرولتْ حياة معه وحين وصولهم إلى مكان الصراخ ألا وهو غُرفة الحبس الانفرداي صُعِقتْ حياة عندما رأت الأسماء المدوّنة على الجُدران، وحاولتْ دخول الزنزانة فأوقفها أحد الضبّاط، كان ذلك حين سمح لها الضابط الآخر الذي التقاها في الممر بالدخول ، رمقت الحجرة عند دخولها وعيناها تدمعان حتّى وصلت عيناها الباكية إلى جُملة " عليك التذكُّر يا صاحب الإثم " فوجدتْ نقشا لأرقام نُقِشَت أسفل الجُملة.

02121

وعندما رأتها اتّجهت إلى الحائط لتجد أنّهُ قد نُقِشَ عليه " شكل سكيّن وأسفلها حرف m"...

ظلّت حياة طوال الليل تُفكّر فيما رأت عيناها من أشياء في غُرفة الحبس الانفرادي الخاصّة بآدم حتّى أتاها وميض الذكريات ...

" قضيّة جنايات القاهرة رقم ٢١٢١ "

تلك القضيّة كانت القضيّة الخاصة بمقتل إبراهيم الراوي وزوجتهُ مُنى عبد الرؤوف.

- دي رسالة من آدم.

قالتها حياة بصوت عالٍ فاشتعلت بعقلها جُملة كانت قد سمِعتها من دكتور الجامعة أثناء دراستها:

- لما تحبّوا تعملوا تقرير سرّي استخدموا الأرقام كدلالة على الحروف.

بدأت حياة في تقسيم جُملة " عليك التذكُّر يا صاحب الإثم " بدلالة الأرقام المنقوشة أسفلها.

١ .. الحرف الأول من الكلمة الأولى"ع".

٢ .. الحرف الثاني من الكلمة الثانية "ل".

١ .. الحرف الأول من الكلمة الثالثة "ي".

٢ .. الحرف الثاني من الكلمة الرابعة "أ".

٠ .. صفر معناها أنّهُ لا يوجد استخدام للكلمة الخامسة.

ثم كتبتْ حياة الحروف ككلمة واحدة فوجدتْ " عليا".

- دا اسم ماما.

قالتها حياة فقفزتْ برأسها الجملة التي قالتها لآدم من قبل:

" ماما عليا كانت عايزه تروح راس شيطان أول ما نرجع من السفر" ...

" بعد يوم ".

ذهبتْ حياة إلى رأس شيطان، وعند وصولها وجدتْ أن هُناك حفل سيبدأ بعد عشرين دقيقة ويُقدّمه كلٌ من عازف البان فلوت " طارق الدالي " وعازف الكمان " أودونيس أرمانيوس " ..

بعد شراء حياة للتذكرة تقدّمتْ إلى الشاطئ المُقام عليه الحفل فوجدتْ إنجي ترقُص " التانجو " في رداء قرمُزي عاري الساقين فاقتربت حياة منها في ذهول، كان ذلك عندما رأتها إنجي فتوقّفت عن الرقص ثم ابتسمتْ لها وأحتضنتها قائلة:

- هفهّمك كل حاجة.

"قبل قتل موريس (أحمد الألفي) بساعتين".

الساعة الثامنة والنصف مساءً.

جلس كلٌ من طارق وإنجي وآدم -أودونيس - في منزل طارق كما طلب أودونيس منهُم.

- محتاجكم لآخر مرّة.

قالها أودونيس فأردف طارق وإنجي في وقتٍ واحد:

- معاك.

فتابع أودونيس قائلاً:

- هدخُل السجن.

ظهر الذهول على ملامحهم فتابع أودونيس قائلاً:

- تمثيل ، هقتل أحمد الألفي زي ما اتفقنا، بس الكاميرات عندُه هتصوّرني ومفيش حلّ تاني ، بعد أسبوع إنجي هتقدّم بلاغ تطلُب فيه تسجيل كاميرات فيلّا الألفي وهتيجي تقبض عليّا في المسرح قُدّام حياة عشان تصدق إني القاتل عشان متبوظلناش الخطّة، تمام؟

فرد طارق وإنجي في صوت واحد:

- تمام.

انتهت إنجي من سرد ما حدث لحياة، كان ذلك حين اعتلى أودونيس المسرح.

***

اعتليتُ المسرح ..

وآلة الكمان في يدي ترقُص فرحاً...

كنتُ قد طلبتُ من طارق مُسبّقاً أن يتنحّى عن هذهِ المقطوعة ويترُكني أسحر الحضور، بدأت في عزف مقطوعة " مونمار " والجمهور يتمايل معي يميناً ويساراً، وحياة تبتسم لي وتُصفّق في ذهول، كان ذلك حين رأيتُه يرمُقني من بعيد ..

رجُلٌ في نهايات العقد الخامس، لهُ شعر أبيض مسترسل بجانب أعين خضراء وشارب أبيض منمّق تحت ملامح أرمنيّة المظهر تكسو وجهاً لرجُل رياضي أبيض، وعند التقاء الأعيُن ضحك حتّى بدت سنّتُه الذهبيّة...

***

حكمة ١٣:- " لا تثق في كُل ما تقرأ .. فليس كُل ما تقرأه حقيقة ، فللغموض أبواب كثيرة كأبواب الجحيم".

النهاية . . .

أسامة عاطف .

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007